ويندي براون

الأزمنة العدميّة

التفكير مع **ماكس فيبر**



ترجمة: نجيب بوعادل

صفحة 7

NIHILISTIC TIMES

Thinking with Max Weber

By Wendy Brown

الأزمنة العدمية

التفكير مع ماكس فيبر

ويندي براون

ترجمة: نجيب بوعادل

صفحة 7

صفحة 7

كتاب

الأزمنة العدمية

المؤلّف

ويندي براون

الطّبعة الأولى:2024

التّرقيم الدّوليّ

978-603-8387-92-4

رقم الإيداع

1445/15896

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان: الجبيل، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

الأزمنة العدمية

محاضرات تانر حول القيم الإنسانية

الفهرس

مقدمة

يستند هذا الكتاب بصورة جوهرية إلى نماذج منقحة وموسعة من سلسلة محاضرات تانر عن القيم الإنسانية The Tanner Lectures on Human Values التي ألقيتُها في جامعة يال Yale في تشرين الثاني عام 2019. لا تحوز سلسلة محاضرات تانر أي تخصص محدد غير إطارها الفكري العام. ويبدو أن مؤسسها وراعيها أوبرت كلارك تانر Obert Clark Tanner، الفيلسوف المورموني البريطاني، والمحامي، وعالم اللاهوت، وأحد رجالات الصناعة، والمحب لفعل الخير، يعكس روحه متعددة التخصص من خلال التوجيهات المرنة التي وضعها لها عام 1978 بقوله: «آمل أن تسهم هذه المحاضرات في المظاهر الفكرية والأخلاقية للحياة الإنسانية. إنني أعتبرها ببساطة بحثا عن فهم أفضل للسلوك الإنساني والقيم الإنسانية».

لذلك، حُصِر الغرض من المحاضرات بصورة ضيقة أكثر في

«تطوير التعلم الأكاديمي والعلمي المرتبط بالقيم الإنسانية».[1] يعزز هذا الحصر التسمية الاصطلاحية المبهمة «قيم». وهي تسمية تعيِّن ما نقدره أو ما نوليه أهمية بمعزل عن سؤال الكيف أو السبب. وهي تسمية تبوح كثيرا بوضعها بوصفها إنجازا أو اختيارا يتحدد في أن صفة «إنساني» لا حاجة لنا بها باستثناء تأكيدها على أن القيم تدل على بُعد مُهِمٍّ للإنسانية، ويحتمل أنها تؤمِّنه. ومع ذلك ينجز الحصر الضيق عملا فذًّا مختلفا يتجلى في بناء المعرفة الأكاديمية والعلم بصورة متمايزة عن القيم، وتكون، مع ذلك، مرتبطة بها. بهذا المعنى هل يتم تخيل المعرفة، بوصفها معرفة منفصلة عن القيم إلى أن تؤثر فيها، وتفحصها، وتتفلسف حولها، وتؤرخ لها، أو بطريقة أخرى، إلى أن تفهمها؟ هل تترتب القيم عن المعرفة، أم إنها متضمنة فيها، أم إن المعرفة تخبرنا عنها وتوجهها فقط؟ هل يعد أيضا، بالنسبة إلينا كأكاديميين وعلماء، ضربا من الخيال القول بأن معرفة العالم هي معرفة بما ينبغي تقديره فيه؟

يبدو أن إطار محاضرات تانر المنقح مازالت توجهه افتراضات التنوير المتمحورة حول التمييز بين الحقيقة والقيمة، وحول قدرة الحقيقة على توجيه فهمنا للقيمة. إنها تحمل نفحات من الأمل المعقود على هذا التمييز وعلى هذه القدرة، ولاسيما على الفكرة التي تقول بأن «التعلم» يؤثر في المبادئ التي ينبغي أن تُعاش الحياة- الفردية

(1)The University of Utah, Tanner Humanities Center, "Tanner Lectures Overview: The Lectures," n.d., https://tannerlectures .utah .edu /overview /lectures .php.

والجماعية- وفقا لها. إلا أنها تقذف بنا توا في التيار الجارف للتأثيرات الأخرى للحداثة حيث أعاق العلم في البداية أسس القيمة التي تعول على فكرة الدين والتراث؛ بعد ذلك ضيق الخناق على القيمة المستردة للقيمة بتعزيز معناها الاقتصادي على حساب باقي المعاني الأخرى؛ بعدئذ قوَّض التصورات التنويرية المتخيلة حول العلاقة بين المعرفة والتحرر، والمعرفة والتقدم، والمعرفة والرفاه الجماعي، والمعرفة واختيار أو صون ما نضفي عليه قيمة؛ وفي الأخير وقع هو نفسه في أزمة. ماذا كان العلم على أية حال إذا لم يكن آنذاك نتاجا إنسانيا جذريا لصنف واحد من الحقيقة أُعلي من شأنها على حساب باقي أصناف الحقيقة الأخرى، ومع ذلك فهو عاجز عن إخبارنا بما ينبغي أن نقدره أو بالكيفية التي نشكل بها العالم بناء على تقديرنا له؟

كان كل هذا سابقا عن الوضع المعاصر المربِك حيث تعرف الترابطات الفلسفية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإيكولوجية، والسياسية التي تخدم القيمة والقيم اضطرابا عميقا في كل من الممارسات المعرفية والعالم ككل. نشأت في وقتنا الحاضر قوى شرسة معادية للديمقراطية في الديمقراطيات الليبرالية الراسخة وأيضا في الديمقراطيات الليبرالية الأحدث نسبيا، وهي قوى تؤكد بصورة صريحة على الحكم المطلق autocracy والتيوقراطية [الحكومة الدينية]، وأشكال الاستبعاد المتسم بالعنف، وأشكال التفوق العرقي والإثني والجنسي. لم تنبثق هذه القوى من التشكيلات والأحزاب اليمينية المتطرفة فقط، ولكن أيضا من الهجمات العنيفة

وصور الفساد التي تبتلى بها النظم الانتخابية من الداخل والخارج، ومن الأعلى والأسفل بما في ذلك إغواء السياسيين بالأموال السوداء، وجذب الناخبين بصورة متزايدة بحملات تضليلية شائعة، والتلاعب بالانتخابات بإلغاء أصوات الناخبين، والتلاعب بتقسيم منطقة إلى وحدات سياسية لصالح حزب أو جماعة سياسية بعينها، ودعم الشركات، والنفوذ الأجنبي. وهناك التقنيات الرقيمة التي تحدث تغييرا كبيرا مستمرا في العمل والمعرفة والحكم والعلاقات الاجتماعية والحياة النفسية والجسد والذاتية، وتحتوي، بالإضافة إلى تعزيز القدرات الإنسانية، طرائقَ جديدة لاستبعادها ومراقبتها والتلاعب بها. وهناك التحول السياسي الاقتصادي الذي أطلق العنان للتمويل بوصفه قوة تحوز سلطة أكبر والتزاما أقل بتحقيق الازدهار الإنساني والعالمي مقارنة حتى بالإنتاج الرأسمالي للسلع. وهناك الاضطراب الناجم عن الفترة الفاصلة بين النظام العالمي المنبثق عن معاهدة ويستفاليا [عام 1648] وأي نظام آخر يمكن أن يخلفه، وهو اضطراب شابَهُ انتهاكٌ للحدود وضبط لحدود الأفكار، والأديان، ورأس المال، والعمل، والتقنيات، والعنف، والملوثات، والسلع. وهناك الطارئ الوجودي الذي يطرحه التغير المناخي الذي يؤدي إلى انهيار التنوع البيولوجي، وبقايا قرن مصاب بهوس مراكمة المنتجات التي لا تقبل التحويل أو الاستقلاب في جزر محيطية عائمة من النفايات وحقول أرضية من المخلفات. وتتضمن هذه البقايا أكثر من مليار إنسان منبوذين هم أيضا مثل النفايات. فمن بين كل ثمانية أشخاص يعيش حاليا واحد منهم في

مدن صفيح عشوائية، وفي مخيمات للاجئين أو المشردين داخل المدن أو في ضواحيها في جميع أنحاء العالم، ويستفيدون من الحد الأدنى لأساسيات الحياة المتحضرة- الصرف الصحي، والتغذية، والتربية، والعناية الصحية، والحماية من العناصر المضرة.

كيف نموضع القيم في هذا الحاضر المربِك؟ من ناحية، لا يمكن أن نوجه أنفسنا حصرًا بالأفكار الموجهة التي تعرضها التقاليد السياسية الفكرية. عادة لا يعود ذلك فقط إلى عدم ملاءمة مقولات هذه التقاليد ومفاهيمها ومناهجها للتقنيات، وأنماط رأس المال، والطارئ المناخي في حاضرنا، لأنها تتصور الأرض والنشاط الإنساني بطريقة عفا عليها الزمن، بل يعود أيضا إلى أنها مشبعة بالافتراضات والأوهام التي تسفر عن الكثير من معضلات الحاضر. وتتضمن مركزية طائشة للإنسان وحركات إنسانية عنصرية ومتحيزة جنسيًّا، وأوهام المعرفة العقلانية والموضوعية، وتفسيرات للعمل تقصي أعمال الرعاية، أو تفسيرات «الطبيعة» التي تحولها إلى مادة سلبية. إنها تنطوي على تقابلات أنطولوجية وإبستمولوجية- بين الطبيعة والثقافة، والواقعة والقيمة، والإنسان والحيوان، والحي والجامد، والمتحضر والمتوحش- وغيرها من التقابلات الاعتيادية - بين الكلام والفعل، والعام والخاص.[2] إنها

(2) لقد أسهمت العديد من مجالات المعرفة في هذه الاضطرابات، ومن بينها نجد الدراسات العلمية النقدية، والدراسات الإيكولوجية، والنظرية النسوية، والدراسات العرقية النقدية ما بعد الاستعمارية. إن العمل الذي أنجزه ديريدا حول عملية التقابلات الثنائية في مركزية العقل والعمل الذي قدمه فوكو حول مفهومي الخطاب والعقلانية تعد بمثابة قوة دافعة أساسية لهذه النقلات الجذرية في الفهم.

تشتمل على صيغتي الزمان والمكان اللتين تنكران أسسها الإقصائية العنيفة أو الناهبة أو الاستعمارية. لا يوجد أي فرع معرفي، من حيث مناهجه أو مضامينه أو حدوده أو رؤيته للعالم يقف منيعا أمام هذا النقد القاسي.

وفي الوقت نفسه، يعد ابتكار نظريات جديدة مجهودا لا طائل منه عندما تسعى إلى فهم المعضلات المعاصرة والإمكانات المتاحة فيها، ويرجع ذلك إلى سببين: أولا، من الناحية التاريخية ينبغي فهم التحليلات الذكية لحاضرنا الفريد في سياقها التاريخي. فحتى عندما نرصد بالتفصيل بعض القوى، والتقنيات، والذاتيات، والتشكيلات السياسية الناشئة في وقتنا الحاضر، فإنه يتعين علينا أن نضع في حسباننا القوى التاريخية التي تؤطرها وتتقاطع معها- ومن ضمنها العدمية، والرأسمالية، ونظام السلطة الأبوية، وتفوق العرق الأبيض- التي تعرف نفسها تحولا عندما تتفاعل مع التأثيرات المتعددة التي تفرزها العولمة والتغير المناخي. ثانيا، إن هذا التحليل المركب، الذي يعد في آن واحد تحليلا تاريخيا عميقا ومثمنا لتمايز الحاضر، تعززه في العادة الأبحاث التي أجراها المنظرون الأوائل. لا يحدث هذا التعزيز باستعمال القوة التحليلية للمفكرين السابقين، وتشخيص الحالات، أو تدوين التاريخ، أو استراتيجيات التغيير المتبعة للخروج من المعضلات التي تحل بنا، ولكن بالتفكير معها وضدها حول هذه المعضلات. هناك إضافة أخرى. إن العديد من المنظرين الاجتماعيين والسياسيين الباقين على قيد الحياة هم كذلك،

ولا يرجع ذلك فقط إلى أنهم ابتكروا إطارات جديدة عميقة ومفيدة للغاية، بل لكونهم كانوا يناضلون بقوة لأجل رسم خارطة لأزمنة التيه خاصتهم. فلسنا أول من يصارع في التاريخ مشكلة أن البشر لم يسبق لهم أن كانوا هنا من قبل. «هنا» فقط هو الاستثناء.

وهذا ما دفعني إلى التفكير مع ماكس فيبر في هذا الكتاب، ولاسيما في محاضرتيه حول المعرفة والسياسة ذائعتي الصيت اللتين تترجمان عادة إلى اللغة الإنجليزية بعنوانين هما «العلم بوصفه حرفة Science as a Vocation» و«السياسة بوصفها حرفة Politics as a vocation». في هاتين المحاضرتين، اللتين ألقيتا بطلب من طلبة جامعة ميونيخ عامي 1917 و1919، يحدد فيبر معالم، ومعضلات، وإمكانات كلا المجالين في مرحلة يرى أنها تعرف استنزافا متسارعا للمعنى والنزاهة، ومُهدَّدَة بالوقوع في «ليل قطبي من الظلام والقسوة الباردين»[3]. إن اتهاماته المدوية للجامعة في زمانه- نظام المحسوبية في التوظيف والترقية والمنح والأقسام الدراسية المسيَّسة بصورة مزعجة، والإقصاء الذي تغذيه معاداة السامية وأشكال أخرى من الإقصاء الذي واجهه عدد من الباحثين الشباب الواعدين، وانتهاك القيم الرأسمالية لحرمتها، والمستويات المتدنية للتدريس فيها، وسحب التخصصات العليا العملَ البحثي من دائرة اختصاصاتها - تعكس بعض السمات في حاضرنا. إنَّ الوصف الذي قدَّمه فيبر للشروط التي ينبغي توفرها للحصول على سياسيين

(3) University of Utah, Tanner Humanities Center, "Tanner Lectures Overview: The Lectures," n.d., https://tanner

طموحين تحركهم النَّزاهة والعزم كان وصفًا قاتمًا ويتردَّد صداه في حاضرنا نحن أيضًا. لقد وصف فضاء سياسيًّا يحتل معظمه الديماغوجيون والبيروقراطيون مع وجود قلَّةٍ من الزعماء الشرفاء، وتهيمن عليه الآلات الحزبيَّة والجماهير المتلاعب بها. لقد أظهر أنَّ الدِّيمقراطية عاجزة عن التَّطور بعيدًا عن نمط الاستفتاء العام ووظيفته. وخلص إلى أنَّ الحياة السِّياسية في الحداثة تعجُّ لا محالة بقيم متصارعة وغير قابلة للحسم على نحو دائم، ومشبعة أيضًا على نحو لافت للنَّظر بتفشِّي استعمال القوَّة والاحتيال السياسيين.

وعلى الرغم من ارتباط هذه الملاحظات بموضوعنا، فإنَّ التَّفكير مع فيبر في هذه اللَّحظة قد يبدو أيضًا منافيًا للبديهة، إن لم يكن شاذًّا في نظر الكثيرين. غالبًا ما يُحمّل فيبر مسؤولية وضع معرفة العلوم الاجتماعية في القرن العشرين على مسار خطير ومتغطرس من الموضوعيَّة المزيَّفة والحياد الأخلاقي، بالإضافة إلى التَّخصص المعرفي الحاد والمناهج الفرعية المعزولة، مما يحول دون تنزيل التطبيقات المعرفيَّة المطلوبة لفهم الوضع القائم ونقده بدلا من عكسه وتأكيده. يرتبط اسمه كما اتفق على ذلك بتأسيس التَّمييز الصَّعب بين الواقعة والقيمة الذي قامت عليه الوضعية positivism خلال قرن من الزَّمان، بربط الواقعة بالصدق (على الرغم من أنه ظرفي بالنظر إلى التقدم العلمي المستمر، والقيمة بالحكم الذاتي subjective judgement، لكن مع الإصرار على أنَّ العلم يمكن أن يخلو من القيمة وينبغي له أن يكون كذلك. ويعرف

بوضعه لأصناف الفعل والسلطة في نمط محافظ، وبوصفه للنماذج المثالية وتثمينها، وتأسيسه لعلم اجتماع الدين الذي تحفه العديد من المشكلات، وتصديه للماركسية بتفسيره الذي يُرجع أصول الرأسمالية إلى البروتستانتية، وبتنظيره للعقلنة وفك السحر عن العالم اللذين ابتكرتهما الحداثة العلمانية بطريقة يتصدى لها حاليًّا الماديّون وفلاسفة العلم ومن على شاكلتهم من العلمانيين. وبسبب سمعته السَّيئة لتقييده العلوم الاجتماعية بتوجيهاته المناهضة للمعيارية، ولرفضه كما صرَّح بذلك لصور الفهم العميق في الهرمينوطيقا، ولتقديمه تعريفًا ضيِّقًا للسِّياسة، فإنه نادِرًا ما يُنظر إليه في الوقت الحالي بوصفه مواليًا للنَّظرية النَّقدية، وإن كانت مدرسة فرانكفورت وفوكو قد استندا إلى فكره. ومن الناحية السياسية، عادة ما ينظر إلى فيبر بوصفه متفائلا بخصوص الرأسمالية. وقد عرف عنه ارتباطه بالقومية الألمانية المتشددة، والذكورية القلقة، وبانجذابه المبكر للتأثير الخاص للنيوليبرالية الذي سيطبع فيما بعد مشروع الوحدة الأوروبية بمبادئ وتقنيات غير ديمقراطية[4]. إنه يمجد سياسة القوة Machtpolitik ويثني على الدول والسياسيين الذين يعتنقونها. إنه لا يعد فقط واقعيًّا، بل مناهضًا شرسًا للمثاليَّة في كل من الحياة السياسية والفكرية.

وبالنظر إلى هذه الخصائص، قد يبدو فيبر متواطئًا مع بعض

(4) William Callison, "The Politics of Rationality in Early Neoliberalism: Max Weber, Ludwig von Mises, and the Socialist Calculation Debate," *Journal of the History of Ideas* 83, no. 2 (2022): 269–291.

القوى الأكثر شرًّا التي تحيط بحاضرنا، هذا إن لم يكن هو مهندسها. إن الموجز الذي قدمناه أعلاه هو تفسير اختزالي للصيغ المركبة للمعرفة والتاريخ والسياسة والرأسمالية والسلطة power عند فيبر. إنه يتغاضى عن قدر كبير من الحيرة والتعقيد، والدهاء، والأصالة، والصراع الفكري الباطني الذي يجعل فيبر غير جدير بالتفكير معه. توجد هذه السمات معروضة في محاضرتَيه حول حرفتي العلم والسياسة اللتين ألقاهما قبل وفاته بقليل.

كان فيبر مفكرًا غامِضًا. لم يكن هذا فقط بسبب سلطته، أو مزاجه، أو مراحل حياته، على الرغم من أن كل سبب من هذه الأسباب كان يطرح تحديات، بل إن فهمه الفريد لبعض العلاقات المنطقية التي تسم الحداثة لا يقل أهمية أيضا: عقلانياتها المتميزة؛ أنماط السلطة الخاصة بها؛ جيلها من الآلات البشرية الذي يتوفر على قدرات على السيطرة لم يسبق لها مثيل؛ نشرها للقيمة والقيم وتبخيسها لها في آن واحد (اختزالها للأخلاقيات في قضايا تتعلق بالميولات الشخصية)؛ عدم ملاءمة الديمقراطية لمقاومة هذه التطورات أو تحويلها، والتحدي الكبير المتعلق ببناء وتطوير تعليم وقيادة سياسية مسؤولين في خضمها.

ففي عالم تعرقله، كما كان يعتقد، قوى هدامة للروح الإنسانية والحرية وخطيرة كذلك بشكل صريح، سعى إلى ابتكار مقاربات عملية قد يبدد بها الأكاديميون والفاعلون السياسيون الإبهام من خلال أعمالهم، وربما يصوغون بها أهدافهم، أو يبثون بها إحساسا

لينا بالأمل، عندما لا تكون الرؤية واضحة بالنسبة إلى كل واحد منهم. ويعد هذا من الأسباب التي تدعو إلى الالتفات إليه حاليا. إننا في حاجة إلى مفكرين يقظين يرفضون الخضوع لإغراءات الحتمية أو للاعتقاد بنهاية العالم أو للحلم المستحيل بثورة شاملة أو الخلاص بفعل تقدم العقل، ويسعون إلى أن يكونوا أكثر من شخصية بارتلبي* [السلبية التي ترفض اتخاذ موقف نشط] أو جنودا مشاة [يمتثلون ولا ينتقدون] في أنظمة المعرفة والسياسة.

إن السبب الثاني الذي يدعو إلى الالتفات إلى فيبر يتصل بمواجهته، في فترة ما بين الحربين العالميتين، للأزمات التي مست الحياة السياسية والأكاديمية والتي توازي إلى حد ما تلك التي يشهدها حاضرنا، بما في ذلك أزمة الليبرالية. من الناحية الفكرية، اعتبر فيبر كلا من ماركس ونيتشه مفكرين مارسا تأثيرا كبيرا في زمانه، وعلى الرغم من أنه كان يرى أن كلا منهما يتميز بعمق في التفكير، فإنه كان يعتبرهما كذلك مفكرين عنيدين يتشبثان بآرائهما الخاطئة على نحو خطير، وسعى إلى التصدي لانتقادات اليسار

---

* *النسَّاخ بارتلبي* هي قصة قصيرة كتبها هيرمان ميلفيل، نشرت باسم مجهول سنة 1853 في مجلة بوتنام الشهرية *Putnam's Monthly Magazine*. كتب ميلفيل قصة « بارتلي » عندما بدا له أن حياته المهنية تسير نحو الانهيار. وتعكس القصة نزعته التشاؤمية. يستأجر الراوي، وهو محام ناجح في وول ستريت، نَسَّاخا اسمه بارتلبي لنسخ الوثائق القانونية. وعلى الرغم من أن بارتلبي كان في البداية عاملا مُجِدًّا، فقد أجاب يوما، عندما طلب منه مراجعة وتصحيح وثيقة «أفضل عدم القيام بذلك». ومع تقدم الوقت صار بارتلبي على نحو متزايد «يفضل عدم » القيام بأي عمل يطلب منه. مات في النهاية بسبب إهماله لنفسه، ورفضه لعروض المساعدة التي قدمت له عندما كان محبوسا بتهمة التشرد.https://www.britannica.com/topic/Bartleby-the-Scrivener

واليمين المعادية لليبرالية التي كان هذان المفكران باعثا عليها.[5] ومن الناحية السياسية، رأى فيبر أن ألمانيا على وجه الخصوص وأوروبا بشكل عام كانتا معرضتين لخطر الحركات الجماهيرية المتشددة، والديماغوجيين عديمي الجدوى، والقوميين والاشتراكيين الذين يفتقدون لحس المسؤولية، ومركزية الدولة statism البيروقراطية والقانونية التي تشير إلى أنساق تكنوقراطية تخيلها الأكاديميون وتبناها بعض السياسيين.[6] لم تكن إعادة تأهيل رجال الدولة أو الممثلين الليبراليين هو الحل الذي قدمه فيبر لهذه الحالة.[7] بل كان الحل هو تشجيع فكرة الزعماء بوصفهم *حكاما*، وفي المقابل تكليف هؤلاء الحكام بالسعي بحس من المسؤولية إلى تنزيل رؤية سياسية. لقد عقد الأمل على أولئك الذين يوفون بنتائج الديمقراطية الانتخابية، ويحترمون حكم القانون، والقيود الليبرالية المفروضة على الحكومة، في الوقت الذي يستعملون ببراعة سلطتهم وقدرتهم على الإقناع لبناء مستقبل سياسي قادر على الإفلات من قيود الإدارة البيروقراطية، ناهيك عن الدولانية الاشتراكية، وتجاوز الأزمات التي تنتج عن التسويات والمقايضة السياسية logrolling في الديمقراطية الليبرالية.[8] وإذا كنا حاليا نواجه نسخًا منقحة من

---

(5) Robert Eden, *Political Leadership and Nihilism: A Study of Weber and Nietzsche* (Gainesville: University Presses of Florida, 1984), 1.

(6) Max Weber, " 'Objectivity' in Social Science and Social Policy," in *The Methodology of the Social Sciences,* ed. and trans. E. Shils and H. Finch (New York: Free Press, 1949; New York: Routledge, 2011), 60.

(7) Eden, *Political Leadership.*

(8) Eden, *Political Leadership,* 188.

هذا في اليمين (بولسونارو، وترامب، وأوربان، وأردوغان، ومودي)، قد نرغب باستمرار في التساؤل حول توافر هذه الإمكانية في اليسار.[9] وسواء كانت أشكال التعبئة السياسية لليسار تتطلع إلى إنقاذ الوضع أو الاستسلام للديمقراطية الليبرالية، فقد صارت بصورة متزايدة منشغلة بسؤال الزعامة في ارتباط بالتحولات واسعة النطاق التي تتجاوز الإصلاحات البرلمانية الترقيعية، والتي لا ترقى مع ذلك إلى مستوى الثورة. ويصدق ذلك على الشعبوية اليسارية، والاشتراكية الديمقراطية البيئية، وسياسة إلغاء الممارسات التي تمس بالحريات وسياسة الشعوب الأصلية abolitionist and indigenous politics. ويجعل هذا من مواجهة فيبر القوية لأزمة الليبرالية والديمقراطية في زمانه، لاسيما في محاضرته «السياسة بوصفها حرفة،» ربما ذات فائدة للأزمة التي نواجه نحن بعد قرن من الزمان.[10]

إن السبب الثالث الذي يدعونا إلى التفكير مع فيبر، وهو السبب الأهم الذي يحرك هذين المقالين، يتعلق بمواجهته الشديدة للمعضلات الفكرية والسياسية في المرحلة العدمية. إن العدمية المتفشية التي لا تتصدى للسلوك العدواني والتي تبخس القيمة

(9) يعد في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم كل من Bernie Sanders و Alexandra Ocasio-Cortez و Stacy Abrams أمثلة عن الزعماء «البطوليين» في اليسار.

(10) On Weber in relation to the German crises of liberalism, in addition to Eden, *Political Leadership*, see David Beetham, "Max Weber and the Liberal Political Tradition," *Archives Européennes de Sociologie / European Journal of Sociology* 30, no. 2 (1989): 311–323.

(بتأليفها بين الأشكال النيوليبرالية السالبة للديمقراطية، والمسؤولية الاجتماعية، والاهتمام بأجيال المستقبل) هي المشكلة التي ختمْتُ بها كتاب *في أنقاض النيوليبرالية* ***In the Ruins of Neoliberalism*** دون أن أقدم حلا لمواجهة التحديات التي تطرحها.[11] وإذا كان فيبر يعرف أكثر بصورنته للمناهج وبالنماذج المثالية، وبإدراجه للهرمينوطيقا في الدراسات الموضوعية للفعل الاجتماعي، وبإعادة صياغته الفريدة للتاريخ المادي لإبراز مركزية القيم، فإن هذه القائمة تعرقل مجهوده في التصدي للتأثيرات العدمية في كل من المعرفة والسياسة. ويشير إلى هذه السمة في تفكيره بشكل صريح تلميحه المتكرر إلى انتهاء تولستوي إلى أنه في الحداثة يكون الموت ومن ثم الحياة مجردين من المعنى، وبإشارته إلى الصورة التي رسمها دوستويفسكي للاَّعقلانية الأخلاقية للعالم.

يبدو ذلك من انشغاله بالآثار الناجمة عن فك السحر عن العالم، والعقلانية، وانهيار الحدود، والانتشار الواسع للغطرسة والنرجسية في الحياة الفكرية، والسياسية، والثقافية. وبينما قد لا يكون ماكس فيبر أكثر المنظرين هوسًا بالعدمية - وهو لقب يحمله كل من نيتشه، وهيدجر، وأدرنو، ورورتي، وروزن. الذين يعرضون تفسيرات فلسفية أشمل- فقد يكون من بين أكثر المنظرين السياسيين الذين تناولوا الجانب السياسي فيها. لقد حدد العدمية بوصفها تسهم في الوضع السياسي المعاصر، والسياسة بوصفها قاعدة رئيسة لتجاوز

(11) Wendy Brown, *In the Ruins of Neoliberalism* (New York: Columbia University Press, 2019), esp. ch. 5.

العدمية: إن السياسة هي المجال المثالي للتعبير عما يسميه «قيما أساسية» أو رؤى العالم ولملاحقتها، وليس فقط عن السلطة أو المصلحة. إن تمييزه الصارم بين الواقعة والقيمة في البحث العلمي الاجتماعي وفي الفصول الدراسية وضع أيضا لقطع الطريق على العدمية حيث تكون الحقيقة والتشاور، وليس الأخلاق والأخلاقيات فقط، عرضة لخطر التخلي عنها.

هناك طرق عديدة لعرض تفسير للقوى الشعبية المعادية للديمقراطية، ولأسياد سياسة القوة الانتهازيين الذين يستنصرون بها في الغرب في أيامنا هذه. واحدة فقط من بين هذه التفسيرات ستبرز التمظهر السياسي للعدمية، بوصفها مفهوما تنبأ نيتشه أنه سيستغرق قرنين من الزمان لكي ينشأ على أنقاض الآلهة وتعاليمها التي أطاح بها العلم والأنوار.[12] تتمظهر العدمية اليوم بوصفها فوضى أخلاقية أو صراحة مزيفة واسعة الانتشار، وتتكشف أيضا بوصفها تأكيدات للسلطة والرغبة مجردة من شعور القلق من المساءلة أمام الحقيقة، أو العدالة، أو النتائج، أو أحداث المستقبل، وليس فقط الأخلاقيات. تتكشف العدمية من خلال الخرق الطائش والاحتفالي للميثاق الاجتماعي مع الآخرين والأجيال التي تخلفهم، والذي يتمظهر من خلال الخطاب والسلوك المبتذلين في الحاضر، خاصة في اليمين وليس حصرا عليه. إنها تبدو من خلال لامبالاة

(12) Friedrich Wilhelm Nietzsche, *Writings from the Late Notebooks,* ed. R. Bittner, trans. K. Sturge (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 83.

متعمَّدة تجاه كوكب هش وديمقراطيات هزيلة. وتتمظهر أيضا بوصفها تطبيعا مع الخداع والجريمة في الفضاءات الراقية والوضيعة، وبوصفها انسحابا جماعيا نحو كل ما هو تافه، ولحظيٌّ، وشخصي.[13] وهي جلية واضحة في غطاء «الأخلاق التقليدية» الاستراتيجي الذي يستعمل لإخفاء الأهداف السياسية المتعلقة بإعادة تأمين أشكال التفوق العرقي، والجنسي، والملكية، أو التي تهدف إلى الحصول على ناخبين تغريهم أشكال التفوق هذه. وتندرج في إطار الممارسات واسعة الانتشار التي تسعى إلى «ترميم السمعة»، أو الانتهازية التي تغير من مسارها طبقا لتغير الأحداث، والتي نلفيها حتى عند أكثر الشخصيات العامة جدية. ويعبر عنها من خلال التجاهل الشعبي غير المسبوق للاتساق، والمحاسبة، وحتى للمصداقية لدى الزعماء الدينيين والسياسيين. وتبدو من خلال أزمة الجمود الإبستمولوجي الصارخ بين اليمين واليسار: الدفاع الضاري عن الدين والتراث من ناحية، والعقل والتقدم من ناحية أخرى، دون أن يحدد أي منهما اتجاهه، *أو* يجاهر بمعقله الذي ترفرف فيه أعلامه والذي سينهيان على أرضه المعركة بينهما. ليست هذه اللائحة شاملة، بل هي مقصورة على تجليات العدمية في الحياة العامة.

أوجه هذا السؤال إلى أولئك الذين يسعون إلى سحب الكوكب،

---

(13) On the relation of criminality and nihilism, see Maia Stepenberg, *Against Nihilism: Nietzsche Meets Dostoyevsky* (Montreal: Black Rose Books), ch. 1.

والديمقراطية، والحرص على العدالة من حافة الهلاك. ما الإمكانات المتاحة لسياسة تستطيع أن تنتصر على العدمية، أو تبددها، أو خوض غمارها، أو على أقل تقدير، تستطيع أن تصدها أو تلتف على أشد آثارها قسوة؟[14] وكيف يمكن حماية المعرفة- من حيث توليدها، وتنظيمها، ونقلها- من القوى العدمية، أو في أفضل الأحوال، استعمالها لشل هذه القوى؟ تعد هذه الأسئلة من بين أخرى كثيرة واجهها فيبر بصورة صريحة في محاضرتيه حول العلم والسياسة بوصفهما حرفة.

لا أقصد من استعمال مفهوم العدمية، وكذلك لم يفعل فيبر، أنَّ القيمة برمتها قد غابت عن العالم، أو أن الحياة لا تنطوي على أي هدف أو معنى. فعندما تفهم العدمية بوصفها حالة بدل كونها موقفا عارضا، فإنها تنشأ بفعل الحداثة وتسفر عن معضلات بارزة بالنسبة إلى المعنى الذي تحمله. من ناحية، يصعب العثور على معايير، فبالأحرى إيجاد أسس، للمعنى والقيمة دون الاحتكام إلى مصادر غير موثوق فيها لهذه الأسس- الدين، أو التراث، أو المنطق- ويجعل انعدام المصداقية هذا من أشكال الاحتكام هذه رجعية ومتطرفة.[15] من ناحية أخرى، يتجلى الإيمان بالتقدم بوصفه نسخة علمانية عن الألفية المسيحية وبوصفها تعيش ارتباكا تجريبيا بفعل إخفاق الحداثة

(14) تمثل هذه الأفعال عددا من الردود الممكنة على العدمية. ولا يمكن لأحدها أن يحل محل الآخر. يختلف استيعاب آثارها أو صدها عما يسميه نيتشه «خوض غمار» العدمية. وسنعود إلى هذا الموضوع في الخاتمة.

(15) Alexander Nehamas, “Nietzsche, Modernity, Aestheticism,” in *The Cambridge Companion to Nietzsche,* ed. B. Magnus and K. Higgins,

في أن تحقق السلم العام، أو الازدهار، أو السعادة، أو الحرية. عندما تتداعى أشكال الاحتكام إلى الأصول والغايات، تفقد برامج التغيير نفسُها بوصلتها، كما لو كنا، بتعبير نيتشه، «قد أطلقنا الأرض من عقال شمسها»[16] نحن ندور الآن دون عقال أو تنوير، ودون قدر من المعرفة حول ما نؤكده أو ننفيه، ودون صفة زمنية أو اتجاهية لحركة التاريخ. وفي ظل هذه الشروط، يصير الغرض والحكم judgement على حد سواء عاريين مكشوفين بشكل لا يطاق.

هناك المزيد وفقا لفيبر. تقوِّض المعرفة الأكاديمية (Wissenschaft التي تترجم عادة علمًا، على الرغم من أنها تتضمن جميع المعارف النسقية والقابلة للنقل، بما في ذلك العلوم الإنسانية) الأساس الذي يقوم عليه الدين وليس وجوده المستمر. بدل ذلك، يعلن فيبر، بطريقة متجردة من أي عاطفة، أنه لكي تكون متدينا في عالم عقلاني يخضع للترشيد، فإن ذلك يتطلب بالضرورة «تضحية بالفكر»، ويعني بذلك أنه يتحتم على الدين أن يرفض العلم على أساس السؤال الرئيس المتعلق بالكيفية التي نكتسب بها المعرفة.[17] وبرفضه لاقتراح نيتشه بأن العلم، كذلك، ينهض على أساس هش، ويمكن أن يشجع على التفاني على شاكلة النمط الديني الضعيف، فقد اتبع فيبر مسارا مختلفا: عندما يطيح العلم بالدين من عرش الحقيقة، فإنه لا يستطيع استبدال سلطة الدين في صناعة المعنى. تغير

(16) Nehamas, "Nietzsche, Modernity, Aestheticism," 226, 230.

(17)Max Weber, "Science as a Vocation," in *The Vocation Lectures*, ed. D. Owen and T. Strong, trans. R. Livingstone (Indianapolis: Hackett, 2004), 27.

محدودية العلم هذه من طبيعة الحقيقة، وفهمها، ومضاعفاتها؛ فهي التي فصلت الواقعة عن القيمة وجعلت القيمة غير قابلة للحسم على المستوى الأكاديمي. يستطيع العلم أن يكشف عن أسرار العالم- العملية التي أسماها فيبر بفك السحر عن العالم disenchantment- لكنه يعجز عن إنتاجها أو تصنيفها.[18] لا يمكن أبدا للعلم أن ينتج القيمة، يكتب نيتشه قائلا، بجعلها «أفضل حليف يمكن أن يحصل عليه النموذج الزهدي المثالي حاليا» تماشيا مع «هدفه المتعلق بثني الإنسان عن احترام نفسه كما كان يفعل في السابق».[19] يستشهد فيبر بقول تولستوي: «يبقى العلم بلا جدوى لأنه لا يجيب عن الأسئلة التي تكتسي أهمية بالنسبة إلينا: ماذا ينبغي أن نفعل؟ وكيف ينبغي أن نعيش؟»[20]. تستطيع التقديرات النفعية أن تكشف عن الغايات المغيبة عند السعي إلى تحقيق غيرها، لكنها تعجز عن اتخاذ قرار بخصوص السؤال المتعلق بأهميتها والسبب الذي يجعلها مهمة. إنها عاجزة عن الإجابة عن سؤال تولستوي. وعندما تدعي أنها قادرة على ذلك، كما يحدث مع المعايير النيوليبرالية للقيمة، والحكم، والسلوك، فإن ذلك إعلان عن بلوغ مستوى جديد من العدمية التي تنبأ بها فيبر وهو عاجز عن معرفة الصورة

(18) سواء أكان الكركند « يشعر » بالألم أم لا، وعندما يبدأ قلب الجنين بالخفقان، وسواء كان الخيار الجنسي فطريا، أو تشكيلا اجتماعيا، أو اختيارا، وسواء كانت الأسواق توزع السلع بفعالية أم لا- لا علاقة لها بالقرارات المتصلة بالقيم.

(19) Friedrich Wilhelm Nietzsche, *On the Genealogy of Morals,* ed. and trans. W. Kaufmann (New York: Random House, 1967), 153, 155–156.

(20) Weber, "Science as a Vocation," 17; and Weber, " 'Objectivity' in Social Science and Social Policy," 53.

التي يمكن أن تكون عليها.[21]

يرى فيبر أنه عندما يحرِّر العلمُ المعنى من أسسه الدينية والأخلاقية، فإن القيم أيضا يقوضها مصدر آخر في عصره، ويعني بذلك «عقلانية أداتية» تلحق بما يسميه «عقلانية القيمة» وتستبدلها في جميع مناحي الحياة. ويصير هذا الاستبدال ممكنا نتيجة التحرر من الإلزام الأخلاقي الذي يتيحه العقل الأداتي، وتصير مقبولة بفضل السلطة الهائلة التي يمارسها هذا النمط على أنماط الفكر والفعل التي تظل الوسائل والغايات فيها مترابطة مع بعضها البعض. إن نظرية فيبر عن الشكل الأولي للسلطة raw power التي نشأت جراء فصل الوسائل عن الغايات تعد أساسا يقوم عليه فهمه للآلة الرأسمالية (حيث يعزل العمال عن غايات الإنتاج) والبيروقراطية (حيث يعزل العمال عن الوظيفة الكلية للشركة). وتحدد أيضا صيغتا العقلنة والعلمانية لديه بوصفهما قوتين نسقيتين بدلا من كونهما نتيجة لمقاصد أو أهداف ذاتية. وإذا كان فصل الوسائل عن الغايات يسفر عن مقدار غير مسبوق من السلطة المستند إلى الفعالية، فإنه يحط أيضا من قيمة الغايات ويقوضها بالكامل. يصير كل شيء أداة، ولا تولد السلطة إلا المزيد من السلطة، ولا تنتج الثروة إلا قدرا أكبر من الثروة، ولا تسفر التقديرات الحسابية إلا عن المزيد من مثيلاتها.

---

(21)هناك اختلافات مهمة بين تفسير فيبر وتفسير نيتشه: هل قتلنا الإله، كما يدعي نيتشه، أم إنه تهافت من خلال العمليتين اللتين يسميهما فيبر بالعقلنة ونزع السحر عن العالم؟ وكما هو الشأن بالنسبة إلى العدمية، هل نرغب في العدم، أم إننا نسقط فيه؟

يجسد العقل الأداتي نفسه في «آلات بشرية» ضخمة تصير «أقفاصا حديدية» وتحول ما كان في الأصل وسيلة لتلبية الحاجات إلى نظام من الهيمنة.(22) وعلى هذا النحو أيضا، وبوصفه يزيد عن مجرد كونه مستقلا عن القيمة، يحمل العقل الأداتي في طيه نزوعا متأصلا للإجهاز على القيمة، متجاوزا الغايات التي وضع لخدمتها، ومحولا الغايات نفسها إلى وسائل، أو سالبا القيم قوتها حيثما كانت باستعمال العقلانية الأداتية.(23) وتعد الأمولة financialization والرقمنة أحدث مثالين لأداتين شرعتا في التشكل في صورتي جهازين للهيمنة يخرجان عن سيطرة الإنسان، وهما الآن بالغتا القوة، وبإمكانهما أن يوقعا العالم في كارثة بين عشية وضحاها.

بإيجاز، يبدو من ناحية، بالنسبة إلى فيبر، أن المعنى في الحداثة يُبنى ولا يُكتَشفُ، وأنَّ القيم لا تحوز قابلية الحسم فيها. ومن ناحية أخرى، تتعرض المعاني القائمة إلى تقويض شرس من قبل قوى فك السحر عن العالم والعقلنة، باستيلاء العلم على العرش الذي كانت تعتليه الأساطير والألغاز، واستغلال الوسائل للغايات بطريقة أداتية في عالم عقلاني. تعد هذه الجوانب مفهومة بصورة عامة. بيد أن مشكلة العدمية، بالنسبة إلى فيبر، تتعدى سلطتي فك السحر عن العالم والعقلنة اللتين تؤديان إلى استنزاف القيمة. تكمن مشكلة

(22) في الفترة التي عاشها فيبر، كانت هذه الأجهزة هي الدولة البيروقراطية والرأسمالية. نضيف إليها التقنيات الرقمية والمالية في الحاضر.

(23) يمكننا أن نلاحظ تعبئة معاصرة للدين في الصراعات الثقافية والجيوسياسية على هذا النحو أيضا: لقد عبئت اليهودية، والمسيحية، والهندوسية، والإسلام بطريقة تجعلها تبخس مكانة القيم لديها.

العدمية، على العكس من ذلك، في المساحات الناشئة التي أقيمت بين المعرفة، والسياسة، والدين في فترة الحداثة، ولاسيما الفواصل- وأحيانا التعارضات- التي تطورت بين العلم والدين، وبين السياسة والدين، وبين المعرفة والدين. في إطار الحداثة ينبغي أن تمثل المعرفة حيادية القيمة التي تفضي إلى الموضوعية؛ وينبغي أن تمثل السياسة صراعا حول القيم الذي يرافقه إدراك عميق بأن هذا الصراع تجسده قوى بشرية وليس قوى وأهدافًا سماوية؛ يرفض الدين هذين الافتراضين ليؤكد أن منشأ المعرفة والقيم يعود إلى قوى سماوية، وهي التي تمليها.

وعلى الرغم من جدتها التاريخية، يعد هذا الفصل الحديث البارز بين الفضاءات وبين المبادئ التي تضفي المشروعية على كل منهما هو ما يسعى فيبر إلى تحصينه ومراقبته. ويمكن ملاحظة ذلك في الآن نفسه من خلال الطريقة التي يحدد بها فيبر المهن بالنسبة إلى العلم والسياسة في محاضرتيه. إنه، من ناحية، يباعد بين هاتين الحرفتين، ويباعد بينهما وبين حرفة الدين. ومن ناحية أخرى، يبث في كل واحدة منهما روحا دينية علمانية، وهي روح تنعش ممارس كل مهنة وتقيده أخلاقيا. وبجلبه لمفهوم Beruf (المهنة أو الحرفة) من الواجب البروتستانتي الراسخ فيه لخدمة الإله عن طريق العمل الدنيوي، فإنه يؤكد على أن الحرف ما بعد العلمانية بالنسبة إلى كل فضاء لا ترتبط بالإله، ولكن بالتفاني، والقناعات، والتضحيات التي تشكل بقايا ممارسة وشعور دينيين بعد غياب علم اللاهوت. فقط

ادعاء هذه القوة الروحية الأخلاقية، التي حافظت على بقائها بعد أن أضعنا الخالق الأعلى، هو الذي يستطيع أن يمنع انحدار الممارسات السياسية والمعرفية إلى إرضاء فجٍّ للذات، أو إرادة جامحة للحصول على السلطة.

إن مصطلح Beruf، كما يصوغه فيبر من منظور ما بعد عدمي، يستلزم تفانيا إنسانيا خارقا في الإيثار، والنضج، وضبط النفس، والمسؤولية الممزوجة بالتزام متقد بقضية خارجة عن كل مصلحة شخصية. وبهذا المعنى، يصور مصطلح Beruf الذات ليس بوصفها مجرد وعاء مستقبل لحرفة، أو بوصفها تستفيد منها وتحقق بها شعورا بالرضا، بل بوصفها ذاتا تتحقق من خلال ممارستها. وبالنظر إلى ما قيل، فإن فصل الدين عن العلم Wissenschaft والسياسة داخل الحداثة يجرد الدين نفسه من مسؤولية قول الحقيقة أو ممارسة السلطة.[24] وهكذا، عندما يغادر رجال الدين مقراتهم، ويسعون إلى ممارسة السلطة الإبستمولوجية أو العملية في المجالين السياسي والمعرفي، فإن ذلك ينتج عنه فساد من نوع خاص، يضفي عليه فيبر صفة عدمي. وبالنظر إلى هذا الأمر من زاوية مختلفة، وبطريقة مفارقة، إن الفاعل المسؤول الوحيد في عصر يتسم بالعدمية، والوحيد القادر على أن يقودنا إلى أبعد من هذا العصر، هو من

(24) يكتب شلوشتر قائلا في Schluchter, *Paradoxes of Modernity: Culture and Conduct in the Theory of Max Weber*, trans. N. Solomon (Stanford: Stanford University Press, 1996), 48. « يصير 'التحرر' من العقلانية العلمية في العالم منزوع السحر 'شرطا قبليا للعيش في وحدة مع الإله.' »

يتصدى بالكامل لمعضلات صناعة المعنى في الحاضر، ويرفع تحدي ابتكار المعنى في عالم لا وجود قبلي للمعاني فيه.[25] وإذا كانت الحداثة تبنى على صدوع لا يمكن رتقها بين المعرفة والهدف، وبين المعرفة والاعتقاد، فإن أولئك الذين يستطيعون التصدي لهذه الصدوع، والربط بمهارة بين صور شغفهم ومساعيهم من جهة، وهذه الصدوع من جهة أخرى، هم وحدهم القادرون على تحمل المسؤولية بوصفهم فاعلين أكاديميين وسياسيين. فقط أولئك الذين قد خبروا انعدام المطلقات الأخلاقية في الحياة العامة، وعدم ملاءمة الالتفات إلى العلم أو الدين للحصول عليها هم الذين سيحملون النزاهة والمسؤولية الأخلاقية إلى كل فضاء من الفضاءات الثلاثة التي قد انفصلت عن بعضها - الدين، والعمل الأكاديمي، والسياسة.

علاوة على ذلك، ووفقا لفيبر، يُظهِر غياب الأسس بالنسبة إلى القيم أنها في الآن نفسه متداخلة مع السلطة، وموضع خلاف، ومفتوحة على التحليل النقدي على الرغم من أنها لا تنبثق من العقل أو لا تحيل عليه للحصول على الشرعية. وهذه الصفات عينها هي ما يجعل القيم بالضرورة سياسية- عارضة ومثقلة بالسلطة، وهو ما يجعل كذلك السياسة ذلك المجال الذي يُخاض فيه الصراع عليها ولأجلها. (إذا كان نيتشه يكلف الفلسفة بمهمة توليد قيم ما بعد عدمية، فإن فيبر يرفض هذا التكليف لتحصين المعرفة من براثن

---

(25) يشير هذا أيضا إلى أن الدور الذي يقوم به الدين في السياسات الأوروأطلسية هو نتاج للعدمية، وليس علاجا لها.

السياسة. تعد الأكاديمية، بالنسبة إليه، فضاء للتحليل المعتدل لافتراضات أنساق القيم المتصارعة وتداعياتها، وليست فضاءً لإنتاجها أو إذاعتها.) وبعيدا عن تأثرها بالعدمية في الحداثة، وهو ما يحدث بالفعل، تعد السياسة بالنسبة إلى فيبر مصدرا متميزا لمنع التحول الخطير والمحتمل للعدمية إلى لامبالاة أو إلى شيء أسوأ منها- قدرية أو كلبية، أو طيش، أو نرجسية، أو استخدامات للسلطة والعنف بطريقة غير خاضعة للمساءلة. ففي عصر علماني، وعقلاني، وعدمي، عندما تُحَلُّ السلطة الدينية والثقافية، تضطلع السياسة بأهمية غير مسبوقة في التعبير عن القيم، وتسويغها، والتنافس عليها، وملاحقتها. بمعنى آخر، عندما تكتمل أركان العدمية، تُسيَّس على الفور القيم النهائية بطريقة مبتذلة، وتوسع كمحرقة أخيرة للصراع السياسي. يعد، من ناحية، التسييس واسع الانتشار (في حاضرنا، مثلا، للاستهلاك، والنظام الغذائي، ووسائل التسلية، والمتع الحسية، والموضة، ونمط الأسرة، والممارسات المتصلة بتربية الآباء والأمهات لأبنائهم، وأسلوب الحياة، وحتى لشكل الجسد) نفسه عرضا من أعراض العدمية. ومن ناحية أخرى، تعد الحياة السياسية الرسمية مسرحًا للعدمية: إن الفضاء السياسي هو مسرح تدور فيه أحداث العدمية في صورة فجة، وهو أيضًا مسرح لتجاوز العدمية والتصدي لها من خلال السعي إلى تحقيق أهداف دنيوية. في زماننا هذا، كلا الاحتمالين واردين، ويصطدمان ببعضهما البعض بشكل متواصل.

ينشأ تناقض الفضاء السياسي بوصفه عصفا ناتجا عن تأثير العدمية، وسببا موجبا لتجاوزها، ويرجع ذلك إلى أن مجال العمل السياسي، وفقا لمنظور فيبر، هو مجال حزبي على نحو مثالي. إنه بطبيعته فضاء للتنافس (على المعاني وليس فقط الأهداف) ولا يتسم بالموضوعية، على الرغم من أنه لا يكون على هذا الأساس تنافسا خالصا بين ذوات أو قابلا لأن يُرَدَّ إلى المصلحة.[26] إن الطبيعة الحزبية المستمرة للحياة السياسية تربط السياسة بالصراعات التي تدور رحاها حول القيم، غير أن طبيعة القيم اللاتأسيسية الراسخة في الحداثة تقيد القيمة بالسياسة. وعلى هذا الأساس، يعلق شيلدون وولن Sheldon Wolin قائلا، بالنسبة إلى فيبر «تصير القيم مرادفا رمزيا للسياسة»، وهذا ما دفعه إلى فصلها عن إنتاج المعرفة وتعليمها[27]. لكن العكس صحيح أيضا: لا تقبل القيم الاختزال في السياسة، ولا يمكن اجتثاثها دون تقويض الحياة السياسية في حد ذاتها. يرى فيبر أن هذا التهديد بالتقويض يكمن في إمكانية مفادها أن السياسة قد تخضع للبيروقراطية، أو ترد إلى عملية إدارية، أو تكنوقراطية، أو مصلحة خاصة محضة، أو مناورة من مناورات السلطة. فضلا عن ذلك، عندما تتنوع القيم نتيجة انهيار السلطة الأخلاقية في عصر الحداثة، تضطلع السياسة أكثر من أي وقت مضى بدور مهم في توسط الصراعات التي تنتج عن القيم المتنوعة

---

(26)Sheldon S. Wolin, "Max Weber: Legitimation, Method and the Politics of Theory," *Political Theory* 9, no. 3 (1981): 401–424, 408.

(27) Wolin, "Max Weber," 409.

وتسويتها.[28] وهكذا، إذا كان فيبر يفهم أن السياسة في زمانه مشبعة بالتأثيرات العدمية، فإنه كان أيضا يرى أنها تحوز قدرة فريدة بوصفها مجالا للتعبير، والتعبئة، والصراع حول السؤال المتعلق بالكيفية التي ينبغي أن نتعايش بها بعد أن قوضت قوى فك السحر عن العالم والعقلنة المتعالقة رغم تمايزها الأجوبة الراسخة في التراث أو الأسس الأخلاقية والدينية. وفي الوقت نفسه، بما أن السلطة هي العملة المتداولة في السياسة، والعنف هو الأداة النهائية التي تستعملها، والانتماء الحزبي هو خاصيتها الجوهرية، فلا يمكن على الإطلاق أن يكون هناك حياد سياسي، أو موضوعية، أو سلم. إن الصراعات التي تدور حول القيم في مجالها هي صراعات دائمة- وهي لا تبعث على الراحة بالنسبة إلى أولئك الذين استثمروا في سرديات التقدم، ناهيك عن الانسجام والكونية المعرفية.

هذه هي الصيغة المصغرة لتأويلي لفيبر، والسبب الذي يدعوني إلى الاعتقاد أن صراع فيبر مع العدمية في مجالي السياسة والمعرفة مفيد لفهم معضلاتنا في كلا المجالين اليوم، وإن كنا ربما لا نتفق مع الشروط والمحظورات التي عرضها كرد على الحالة التي وصفها بذكاء شديد، والتي لن أوافق عليها، وإن كنا ربما نتصدى لشروطه حول طبيعة المعرفة (موضوعية) والسياسة (متمركزة في يد الدولة)، وإن كنا ربما نريد استثمار نفاذ بصيرته للظواهر التي كان لا يؤيدها، مثل أشكال التعبئة التي كان ينهجها اليسار السياسي أو الدمقرطة

---

(28) Mark Warren, "Max Weber's Liberalism for a Nietzschean World," *American Political Science Review* 82, no. 1 (1988): 31–50, 32.

العميقة deep democratization.[29]

سأتناول في الفصول اللاحقة كل محاضرة على حدة: سأتناول بداية محاضرة السياسة، وبعد ذلك سأدرس محاضرة العلم/ المعرفة. إن تناولي لهما على هذا النحو يقلب الترتيب الذي اتبعه فيبر في تأليف محاضرتيه وإلقائهما- محاضرة العلم كانت في نوفمبر عام 1917، وبعدها محاضرته في السياسة في يناير عام 1919- بيد أن التفكير فيهما بناء على هذا الترتيب سيبرز المشروع ما بعد العدمي الواسع الذي يبنيه فيبر بصورة ضمنية، وربما أيضا غير واعية، من خلال هذين الحقلين. هناك ملاحظة إضافية أخرى: لن يجدني القارئ متخصصا أكاديميا في كتابات فيبر من خلال هذه التأملات. أدين بالكثير للعمل الأكاديمي، بطبيعة الحال، بيد أنني لا أسعى إلى الإسهام فيه. إن هدفي هو التفكير مع فيبر لفهم وتحليل أزمنتنا، وعالمنا المضطرب والمثير للقلق.

(29) إن الانخراط في التفكير مع فيبر لا يعني أنه بالإمكان عزل النزوعات المحافظة، والذكورية، والقومية، واللاديمقراطية، والمنهجية بسهولة عن العناصر المحرضة للتفكير التي قد نجدها ذات قيمة. تعد هذه النزوعات عناصر مؤسسة لفكر فيبر، وتسهم في قيمة التفكير معه والتحديات التي تعترضه.

أولا

السياسة

لم يكن ليتحقق الممكن لولا أن الناس قد حاولوا دون كلل تحقيق المستحيل في هذا العالم... فحتى من ليسوا زعماء أو أبطالا ينبغي لهم أن يحصنوا أنفسهم بعزيمة قوية لا يزحزحها تحطم كل آمالهم.

- ماكس فيبر

السياسة تعني حفرا متأنيا وقويا يخترق ألواحا صلبة.

- ماكس فيبر

تعني العدمية في اللغة الشعبية المعاصرة موقفا يرى أن كل شيء، ولاسيما الحياة الإنسانية، فارغ من أي دلالة أو قيمة جوهرية. تعزى رؤية العالم الفردية بصورة متباينة إلى ثقافة الرداءة، والإرهاب، وضجر المراهقة، وما بعد الحداثة، وبعض صور الاكتئاب، وتعزى بصورة مثيرة للعاطفة إلى فقدان الأمل في المستقبل، والسخرية،

والتشاؤم، والنسبية، واليأس. وترتبط أيضا بانعدام المسؤولية، والسلطة دون حق، والأعمال الإجرامية التي لا يعاقب عليها، وعدم الاكتراث للمعاناة. من المؤكد أن العدمية تحمل بينَ طيَّاتها كل هذه الإمكانيات. بيد أن العدمية بوصفها وضعا- نجمت عن قوى متعددة في فترة الحداثة الأوروبية، ولاسيما عن صراع عصر الأنوار مع السلطة الدينية، وتزايدت حدتها بالإضفاء النيوليبرالي للصفة الاقتصادية على جميع القيم، وعن تقنيات الذكاء الاصطناعي- هي شيء آخر مختلف.

وفقا لفيبر ونيتشه، تعد العدمية إفرازا حتميا لفترة الحداثة الغربية، تمخضت عن استبدال الحقيقة الدينية والقيم التي تحميها بالعقل والعلم. فلو لم تكن السلطة في فترة ما قبل الحداثة توحيدية، ولو لم يكن الخالق الأعلى يسع علمه كل شيء، وقادرا على كل شيء، ولو لم يكن العقل غريما للإله وبديلا عنه، لما لقي المعنى أزمة في عصر الأنوار، ولما أزاح العلم السلطة الدينية والتقليدية عن عرشها، ولما سعى العقل إلى استبدال مصادر المعنى. لا يتوقف الأمر عند تخيل صعوبة هذا «الافتراض»، بل إنه لا يتماشى أيضا مع الحداثة الأوروبية، التي فهم كل من نيتشه وفيبر أنها قد نشأت عن التحويل العلماني للأسس الدينية للغرب. إن هذه الأسس التي هوجمت من قبل قوى لا مثيل لها، وهي العلم، والعقل الحسابي والأداتي، ورأس المال، وسلطة الدولة، وغيرها، لم تهزم فقط بهذا الهجوم، بل صارت أنقاضا استمرت في توجيه المشهد. وعليه تعود نشأة العدمية

وامتدادها إلى المعضلات الخاصة التي يواجهها المعنى، والتي تولدها أزمة التوحيد monotheism الحديثة والمتواصلة في الغرب[30] بيد أن قدراتها على الانتشار والترسب في أعماق المؤسسات والممارسات زيادة على دافعها الأصلي، تسهم في انتشار العدمية في كافة أنحاء المشهد الاجتماعي والسياسي المعاصر.

نيتشه

يستمد فيبر تفسيره للعدمية من منظور نيتشه لها، لكنه يحدد آثارها بطريقة مختلفة، ويقدم مقاربة مختلفة لمواجهتها. وفقا لنيتشه، تعد العدمية حالة ثقافية وتاريخية نتجت عن تنحية الإله، والإدراك المصاحب لها بأن لا الشكل العلماني للدين ولا المفاهيم القريبة منه، العلم والدين، تؤمن المعنى للوجود والمجهود الإنسانيين. يسفر هذا الإدراك، مادام أنه مستمر في التقيد بالشرط الذي أنتجه، عن قناعة مفادها أن الحياة نفسها مجردة من المعنى والقيمة، وهي الفكرة التي يتصدى لها نيتشه بتكليفه لنا بمهمة بناء المعنى وسنه بعيدا عن الأنساق الأخلاقية الراسخة في الأسس الأخروية أو الغيبية. فالعدمية هي تلك الحالة التي تصيبنا بعد انهيار الأسس الأخروية، لكنها تسبق السعي إلى إنفاذ المهمة العلمانية المتعلقة بابتكار القيمة أو «سَنِّها». لذلك، يشخص نيتشه العدمية بوصفها «مرحلة مَرضية

---

(30) «عثر على العدمية في تأويل خاص جدا يسمى تأويل الأخلاق المسيحية» Friedrich Nietzsche, *Writings from the Late Notebooks,* ed. R. Bittner, trans. K. Sturge (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 83.

انتقالية» - ترتبط هذه الحالة المرضية ب «التعميم الهائل، أي الاستدلال على أنه لا وجود للمعنى على الإطلاق» انطلاقا من هذه الأزمة الخاصة بالمعنى.[31] «لقد تلاشى تأويل واحد؛ لكن بما أنه كان ينظر إليه على أنه التأويل النهائي»، يكتب نيتشه قائلا، «فإنه يبدو الآن أنه لا أثر للمعنى في الوجود، كل شيء يبدو بلا جدوى».[32]

وفي ظل هذا الشرط التاريخي والثقافي، إن قبول كوننا مخلوقات «مؤسِّسة للقيم» هو أمر يصعب استيعابه على المؤمنين المتدينين والملحدين.

يكتب نيتشه قائلا:

تعود جذور السؤال العدمي «لماذا؟» إلى العادة القديمة المتصلة بافتراض أن الهدف ينبغي أن يفرض، ويمنح، ويملى من الخارج- من سلطة تفوق طاقة البشر. وبعد التخلص من الإيمان بتلك العادة القديمة، يبقى الفرد خاضعا لتأثيرها، ويسعى إلى إيجاد سلطة بديلة قادرة على أن توجه دون شروط وتملي الأهداف والواجبات. وبذلك تضطلع سلطة الوعي بمكانة ريادية (كلما تحررت أكثر من اللاهوت إلا وصارت بصورة متزايدة أخلاقا إلزامية) تعوض فقدان السلطة الشخصية. وكبديل عن ذلك، قد يوكل الواحد أمره إلى سلطة العقل، أو إلى الغريزة الاجتماعية (غريزة القطيع)، أو إلى التاريخ بروح متأصلة وهدف يحركها. وفي النهاية، إن السعي إلى تحقيق

(31) Nietzsche, *Late Notebooks,* 146–147.

(32) Nietzsche, *Late Notebooks,* 117.

السعادة، الممزوجة بالقليل من النفاق والخداع، هي سعادة الأغلبية من الناس.[33]

بإمكاننا أن نرصد اليوم بدائل للسلطة القديمة- مثلا الإيمان بالحقيقة المتعالية للأسواق، والعدالة الاجتماعية، والنظام الطبيعي، ونظام السلطة الأبوية الغيرية heteropatriarchy، والإنسانية، أو معاداة الإنسانية. وعلى الرغم من ذلك، سنركز حاليا على الادعاء الأعم عند نيتشه الذي يفيد أنه في الوقت الذي تروم هذه البدائل إلى إبطال أي استنتاج عدمي، فإنها في الواقع تعبر، بل وتكشف، عن عالم قد صار مضطربا بسبب مسلمات المعنى. نجد هنا واحدا من أكثر التفسيرات اقتضابا التي قدمها نيتشه لهذه الظاهرة:

نشأ الإحساس بانعدام القيمة عن طريق إدراك عدم قابلية استعمال مفهوم «الهدف»، ومفهوم «الوحدة»، ومفهوم «الحقيقة» لتأويل خاصية الوجود. إنه ليس الأساس الذي تقوم عليه الأهداف والإنجازات؛ وليست هناك وحدة شاملة في خضم تنوع الأحداث؛ أما خاصية الوجود فإنها غير صادقة، بل هي على العكس من ذلك كاذبة... ببساطة، لم يعد يجد الواحد أي مسوغ يقنع به نفسه بوجود عالم أصيل... وباختصار، إن مقولات «الهدف» و«الوحدة» و«الوجود» التي نضفي بها قيمة على العالم، قد استأصلناها الآن-

---

(33) Friedrich Wilhelm Nietzsche, *The Will to Power,* ed. W. Kaufmann, trans. W. Kaufmann and R. J. Hollingdale (New York: Random House, 1967), I.20, pp. 16–17.

ونتج عن ذلك عالم مجرد من القيمة.[34]

إن العالم الذي يبدو بلا قيمة هو نتاج لتاريخ خاص، تاريخ يمثل انهيار لاهوت بعينه. إن الصورة التي يبدو عليها لا تعكس حقيقة الوجود أو الحقيقة المرتبطة بالقيم، بل إنها بالأحرى نتاج لهذه السيرورة. وهكذا يستطرد نيتشه قائلا:

لنفترض أننا قد أدركنا كيف يمكن أن يصير فهم العالم متعذرا بالاستناد إلى هذه المقولات الثلاث [الهدف، والوحدة، والوجود]، وأنه بهذا الإدراك يصير العالم بالنسبة إلينا بلا قيمة. آنذاك يتعين علينا أن نتساءل عن مصدر إيماننا بهذه المقولات الثلاث - لذلك فنحن مدعوون لمعرفة ما إذا كان يتعذر علينا التخلص من إيماننا بها. فعندما نحط من قدر هذه المقولات الثلاث من القيمة، فإن البرهان على أنه لا يمكن تطبيقها على الكون لا يصير مبررا للحط من قيمته.[35]

لذلك، نلاحظ الأهمية التي تضطلع بها إعادة التقييم بالنسبة إلى إجراء أبحاث جينيالوجية حول مبادئنا الأخلاقية، وبالنسبة إلى فهم الكيفية التي قد تمكننا من التعافي من آثار العدمية عند نهاية هذه الأبحاث. تتطلب إعادة التقييم التصدي لأشكال الفهم الجاهزة حول أصل هذه القيم، والمصالح التي تخدمها، والتشكيلات التي تحدثها. يتردد هذا التحدي في تصدير كتاب جينيالوجيا

(34) Nietzsche, *Late Notebooks,* 219.

(35) Nietzsche, *Late Notebooks,* 219.

الأخلاق.[36]

وعلى الرغم من ذلك، إن صعوبة إعادة تأسيس القيمة في الأزمنة العدمية تتعدى مهمة تجاوز التصورات الخاطئة حول النشأة، والوحدة، والغاية. يكمن جوهر هذه المشكلة المحيرة في التأثير الذي تمارسه العدمية على القيمة. وفقا لنيتشه، تحط العدمية من شأن القيم، بما في ذلك قيمة الحقيقة نفسها، وتحافظ في الآن نفسه على وجودها. «يغيب الهدف؛ والجواب عن سؤال "ماذا؟ وعن سؤال "ماذا تعني العدمية؟" لأن القيم العليا تفقد قيمتها»[37]. وبعد تقويض أسس القيم مع استمرار صيغها وآثارها، فإنها لا تتلاشى بسهولة، بل تصير قابلة للتكيف والتبادل، وتافهة، وقابلة لأن تتحول إلى أدوات، وجاهزة للمقايضة بأغراض خارجة عنها، ومصطنعة ومغالية في الوقت نفسه.[38] يسمي نيتشه هذه الظاهرة «انحطاطا»، وبالإمكان ملاحظة أمثلة معاصرة على ذلك في مجالات مختلفة كالتبادل التجاري، والسياسة، والدين، وفي الوسم الملفت للنظر للأشياء والأفراد بتكرارات سطحية للقيم الثقافية والاجتماعية. عندما تسخر القيم لتعزيز رأس المال، وينطبق ذلك على الأفراد، والشركات، والمنظمات غير الربحية، والمدن والدول على حد سواء، وعندما ترتبط بالأشياء بدءا من القرارات الاستثمارية، مرورا

(36) Friedrich Wilhelm Nietzsche, *On the Genealogy of Morals,* ed. W. Kaufmann, trans. W. Kaufmann and R. J. Hollingdale (New York: Random House, 1967), "Preface," 16–20.

(37) Nietzsche, *Late Notebooks,* 146.

(38) Nietzsche, *Will to Power,* I.62–68, pp. 42–44.

باختيارات نوع القهوة، وصولا إلى الإعجاب بالأبطال الرياضيين، فإن تسفيهها وتحويلها إلى أدوات ينزل إلى مستوى منحط لم يتنبأ به حتى نيتشه نفسه. وبإدراج القيم في صورة علامات للتجزئة hash tags، وملصقات على خلفية السيارات، وملصقات في الحدائق، وهويات جماعية عابرة، وإعلانات إغرائية خادعة advertising baits، فإنها تفقد عمقها وثباتها، وعلاقتها برؤية العالم Weltanschauung، وتأثيرها الشامل على السلوك والوعي، وتفقد قدرتها على تشكيل النظام الأخلاقي. وبمنأى عن اقتصارها على الإشارة إلى الانقسامات الثقافية، والعلامات التجارية المرتبطة بالنسوية، ومناهضة العنصرية، ومناهضة الاستعمار، والنوع اللامعياري من ناحية، والمرتبطة بتصورات كالإله، والأسر المعيارية المغايرة، والوطنية من ناحية أخرى، فإنها تشير إلى أن القيم قد صارت بفعل العدمية سطحيةً ومُسَلَّعَة.

يستتبع تبخيس القيم، وفقا لنيتشه، اختزالا جذريا لقوة الوعي. كيف يحدث ذلك؟ يتعرض تسامي الغرائز أو الرغبات (البدائية أو التي تأثرت بعوامل تاريخية وثقافية- كما يوضح نيتشه ببراعة!) الذي تتطلبه القيم الرسمية إلى التقليل من شأنه أو حتى عكسه، فينتج عن ذلك انفلاتات عنيفة معادية للمجتمع. هنا تصطف حجة نيتشه جنبا إلى جنب مع حجة فرويد، والأمثلة على ذلك أيضا كثيرة: ينتشر انعدام الكبح، لاسيما للسلوكات العدوانية، في كل مكان. فيُستبعَدُ «الضمير conscience» الذي يشكل جوهر العقد

الاجتماعي في الديمقراطيات الليبرالية استبعادا صريحا، على الرغم من التسويات التي عقدتها خلال مسارها التاريخي: يتم باستخفاف التخلص من التعهدات التشريعية والشعبية بتحقيق الإنصاف، والاحتواء، وبالتقيد بحكم القانون، وبالتفكير في أجيال المستقبل، ويُغَار عليها بصورة صريحة أحيانا أخرى. تشمل التأثيرات الأخرى للوضع العدمي، وفقا لنيتشه، الفردية المفرطة hyperindividualism والحاضرية presentism. يفض الميثاق الاجتماعي الذي يعقد مع الآخرين ومع الماضي والمستقبل، فنلفي أنفسنا غارقين في عالم موغل في الفردية ومتركز حول الحاضر. يتوافق هذا التطور بشكل محكم مع صور الثناء على الليبرالية الجديدة خلال العقود الخمسة المنصرمة: في الواقع تسهل العدمية إضفاء الليبرالية الجديدة للطابع الاقتصادي على جميع مظاهر الحياة، وتصير هي كذلك أكثر حدة بسبب إضفاء هذا الطابع الاقتصادي. وعلى الرغم من ذلك، إن إعلان هوبز Hobbes في القرن السابع عشر أن «قيمة الإنسان هي ثمنه» [الذي يعيره الآخرون به] يؤكد إصرار نيتشه على أن أصول العدمية تعود إلى بداية نشأة الحداثة وليس إلى بداية أفولها.[39]

يبين نيتشه أن الحقيقة في عصر العدمية تُجَرَّدُ من قيمتها إلى جانب باقي القيم الأخرى.[40] فبالإضافة إلى كون الحقيقة مغمورة

(39) Thomas Hobbes, *Leviathan,* ed. C. B. MacPherson (London: Penguin, 1968), ch. 10, 151.11.

(40) Nietzsche, *Late Notebooks,* 147–148.

استراتيجيا بالدعاية، ومنصهرة مع المصالح التجارية، وتلاعب الديماغوجيين الانتهازيين أو الذباب الإلكتروني troll farms الروسي بها، أو إتلافها بالدافع الذي يخلقه طعم النقر على الروابط الإلكترونية clickbait، فإنها لا يمكن أن تصمد- وكذلك المفاهيم المرتبطة بها مثل الاستقامة، والمسؤولية- أمام التقويض والإضعاف الذي تخضع له القيم. في الواقع، يميط هذا التقويض والإضعاف اللثام عن أن الحقيقة هي نفسها قيمة، وأنها تتداخل أحيانا مع الوقائعية، ومع ذلك فنادرا ما ترد إليها.[41] ويؤدي كذلك التنافر الحاصل بين العلم والدين إلى تلاشي الحقيقة. وإذا كان الدين لا يتوقف على الحقيقة، ولكنه راسخ في الإيمان والضرورة، فإنه أيضا لا يريدها، ولا يبجلها، ولا يلمع صورتها. إن انفصال الدين عن الحقيقة، يجعله بصورة عكسية جائرا، ومشوَّشا، وحاكما متقلبا ينظم أساليب الحياة، ومتاحا لنوع خاص من التسييس. وسنتطرق بالتفصيل إلى كل هذا قريبا.[42]

يؤدي التبخيس الثقافي والسياسي لقيمة الحقيقة إلى توليد مجموعة من التوجهات الوجدانية والفكرية الممكنة، بما في ذلك الكلبية

---

(41) يحيط رون سوسكيند بهذا المنعطف في تفسيره لرئاسة ج. و. بوش، والذي يتضمن اقتباس Karl Rove سيء السمعة حول صناعة الواقع. Ron Suskind, "Faith, Certainty and the Presidency of George W. Bush," *New York Times Magazine*, October 17, 2004

(42) كانت السياسة الخارجية ل ج.و. بوش، بمزجها بين الإيمان والإيديولوجيا في قلب صناعة القرار، سباقة أيضا إلى ما سيصير استخفافا صارخا متزايدا بالوقائعية والحقيقة، متفشيا في السياسة حاليا، ولاسيما في الحزب الجمهوري دون أن يكون ذلك حصرا عليه.

cynicism والارتيابية، والتشاؤمية، وحتى الرومانسية. يحدد نيتشه انقساما رئيسا بين من يرفضون الدين وبين من يتمسكون به. إنَّ من يسميهم «ملحدين وهنين pale atheisits» يبقون حبيسي السخرية- والارتياب، وفوق ذلك كله حبيسي أنفسهم. من المؤكد أن النرجسية هي صناعة مزدهرة في عصر العدمية كما هي حال الرغبات التي تزدهر بتشجيعها وإشباعها. ومع تلاشي القيم جميعها، لا يتبقى سوى تأثير حالات الإشباع والشعور بالأمان اللحظيين. في حاضرنا إن هذه التأثيرات العدمية- الاستغراق في الذات ورغباتها وسلامتها- تتماشى بصورة متراصة مع العقلانية السائدة في كل من الليبرالية الجديدة، والنزعة التسلطية الأمنية. ويفسر هذا التوافق لماذا أزاحت هاتين الإيديولوجيتين الديمقراطية بسهولة وحلَّتا محلها.[43] من ناحية أخرى يتشبث المتدينون بصلبانهم ويرفضون الفكر، ويعرضهم ذلك بسهولة إلى قبول الأوهام التي تتنكر في صورة حقائق وإلى تلاعب الديماغوجيين بهم. فكلا هاذين النزوعين، المتسمين بالاستغراق النرجسي في الذات والشكل السطحي وغير المتسق للدين، يعبران عما يسميه روبرت بيبين Robert Pippin بإخفاق الرغبة، أي عدمية تتصف بفقدان الرغبة في الارتباط بالعالم، والآخرين، أو حتى بالحياة الخاصة.[44] ويتماشى هذا من جديد مع مقولة نيتشه بأن «الهدف معدوم».

---

(43) Robert Pippin, *Nietzsche, Psychology and First Philosophy* (Chicago: University of Chicago Press, 2010), 51.
(44) Pippin, *Nietzsche,*19.

يرى نيتشه أن خوض غمار العدمية بغرض توجيه الفرد لنفسه بصورة مختلفة أمام فكرة موت الإله يقتضي تطوير قيم عميقة لا تصدر عن ردود أفعال، والسعي إلى «تشريع» هذه القيم في العالم ولأجله [كما تشرع القوانين]. لا ينشأ تجديد القيمة هذا عن تفكير متأن أو اختيار محسوب، بل إنه يشاطر الإيروسية طبيعتها اللاعقلانية وغير الاستراتيجية. وبعبارة روبرت بيبين إنه «شيء يستحوذ علينا، شيء لا نملك القدرة على عدم العناية به؛ ما كان له أن يكون حبا لو أنه كان يخدم أي استراتيجية أداتية، و[شيئا]... يتعدى كونه مجرد رغبة عابرة. إنه ينطوي على التزام صادق وحماسي بغاية مرغوبة، وتماهٍ معها».[45] إن تجاوز العدمية لا يعني اتخاذ قرار عقلاني لتحديد ما ينبغي أن نضفي عليه قيمة من بين مجموع الأهداف والإمكانات المتعددة (مما سيرفع، في جميع الأحوال، من حدة الوهم بخصوص ذلك «المارق التافه، أي الذات... صاحبة الفعل، والأساس الكامن وراء إرادة الفعل»، بل يقتضي استنبات القيمة بالشد عليها بالرواء من نبع التعلق الحي الذي لا ينضب، ومن ثم إصلاح عجز الرغبة والهدف الذي يسم العدمية.[46] بطبيعة الحال يمكن أن يتأثر هذا الاستنبات بالتربية، والعوامل الخارجية المؤثرة، والتجارب الشخصية، وينبغي لها في الواقع أن تتصدى لتشكل حالتنا البدئية- التي تبقى بمثابة رد فعل إذا كانت فقط كما

---

(45) Pippin, *Nietzsche,* 29.

تأمل كيف أن هذه الطاقة، التي ترفض بشتى السبل أن تكون أداة، تقاوم العقلنة ونزع السحر عن العالم اللذين يشكلان بالنسبة إلى فيبر قوة تاريخية عالمية.

(46) Nietzsche, *Genealogy of Morals,* I.13, p. 45.

يسميها المحللون النفسيون إفراغا للرغبات المكبوتة. لذلك لا تناسب كل صورة من هذا التعلق العاطفي تحقيق هذه الغاية. بيد أن موضعة هذا الشغف في قلب القيمة لا يعني فقط انفصال صيغتها ما بعد العدمية عن السلطة الإلهية أو أي سلطة مطلقة أخرى، ولكن أيضا عن إعادة الإنتاج والإشباع المهيمنين ثقافيا، الذين يقومان على أساس ما نشترك في تسميته تراثا. إن القيمة ما بعد العدمية هي قيمة مجردة من الأسس التي ستضمن حقيقتها، ولا ترتبط بأي ثقافة متجانسة تنتجها وتجسدها حيثما كانت. وحتى إن كانت مقبولة وتشريعها ناجحا إلى حد كبير، («تشريع قيم جديدة» هو الكيفية التي يصف بها نيتشه تجاوز العدمية)، فإن هذا المستجد يظل مستمرا. إن هذا التحول الذي يعرفه أصل القيمة من كونها قيما راسخة بفعل التأثيرات المجتمعية إلى كونها تشريعا علنيا تقوم به السلطة power يعد من الأسباب التي ستدفع ماكس فيبر إلى إسناد إعادة إنتاج القيمة ما بعد العدمية إلى الزعامة الكاريزمية.(47) لقد فقد كل من الإله والتراث مكانتهما بوصفهما مصدرا قارا للسلطة authority

(47) إن المقاربات التي اعتمدها نيتشه في تصديه للعدمية لا تكرس فقط الفردانية بوصفها وسيلة لتجاوز العدمية، بل تركز أيضا على التأكيد على هذه الحياة وعلى هذا العالم، بتخليها عن البحث عن القيمة خارج الحياة أو ما بعدها. إن مفهومي العود الأبدي وعشق القدر *amor fati* يؤكدان على أهمية أن السلامة الصحية، والقوة، والإرادة الإنسانية هي كل ما يمكن أن يوجهنا بعيدا عن المسار الرافض للحياة، وهو مسار ينقلنا من الدين إلى العلم و يبلغ ذروته بتحوله إلى عدمية. وفقا لنيتشه، يعد أيضا هذا التجاوز فرديا، وفي أحسن أحواله ثقافيا. إنه لا يبحث عن حلول ممكنة في السياسة، ويحمل موقفا سلبيا من الديمقراطية، أو مذهب المساواة، أو المسؤولية الاجتماعية والسياسية. تحد هذه القيود من أشكال «خوض غمار» العدمية عند نيتشه التي تهدف إلى التجديد الديمقراطي، أو إصلاح العالم.

[بما هي حق شرعي] في فترة الحداثة، ولم تعد هذه السلطة العقلانية والقانونية قادرة، مثلها مثل العلم، على إنتاج القيمة. فقط السلطة الكاريزمية charismatic power التي يحركها التزام متقد بقضية ما وتكون رؤيتها مغرية، هي التي لديها القدرة السياسية على إحداث التغيير، وعلى العبور بأتباعها عبر التحديات التي تطرحها العدمية ومن ثم تجاوزها.

فيبر

قبل أن نتعمق أكثر في هذا الموضوع، من الضروري أن نقف عند فحص التفسير الذي يقدمه فيبر للوضع التاريخي للعدمية، وهو تفسير يعول على منظور نيتشه، إلا أنه يحيد عنه، ويتصدى لبعض الحلول التي قدمها. كان تأثير نيتشه على فيبر قويا، بيد أن العمل الذي قدمه تولستوي، وربما حتى الأزمة العدمية الشخصية التي عاشها تولستوي كانت أيضا لا تخلو من الأهمية بالنسبة إلى فيبر فيما يتعلق بتطويره لمنظوره الخاص حول التأثيرات العدمية في الثقافة، والسياسة، والمعرفة. والأهم من ذلك، بالنسبة إلى فيبر، هو أن تقويض الأساس الذي تقوم عليه القيم التي تحوز سلطة، لا ينحصر تأثيره فقط في إضعاف القيم وتبخيسها، بل إنه يزيد من عددها وتنوعها.[48] لقد تلاشت السلطة التي كانت تؤمن مصدرا وحيدا ومشتركا للحقيقة، ونحن نعيش الآن ، كما يقول فيبر، مثلما كان

(48). Mark Warren, "Max Weber's Liberalism for a Nietzschean World," *American Political Science Review*, 82, no. 1 (1988): 31–50, 32.

يعيش الإغريق القدامى عندما «كانوا يقدمون القرابين تارة لأفروديت وتارة أخرى لأبولو... الآن فقط جردت الآلهة من السمات السحرية والخرافية، التي كانت تنسب إليها بوصفها حقيقية روحيا، والتي كانت تمنحها هذا الحضور القوي».[49] ينطوي استحضار فيبر للإغريق على تضمينات مهمة: مع غياب الحسم في القيم النهائية، عدنا أدراجنا إلى وضع شبيه بوضع العصر ما قبل الحديث، وما قبل المسيحي، وهو وضع يتصدى للوعد الأنواري بإزاحته للحقيقة من مجال القيمة بدل تنصيبها عليه.

وبفقدان القيمة لأساسها الراسخ في الحقيقة، وبتخلي العلم والرأسمالية عن دعمها، تصبح الليبرالية بمعية المبادئ التي تشملها، غير حصينة بشكل عميق وخطير.[50] (يستنكر كل من نيتشه وفيبر التمجيد الكثير لمفهوم «سوق الأفكار» بوصفه محددا للحقيقة في وقتنا الحاضر، كما لو كانت الأسواق والحقيقة مترابطان على الدوام، وكما لو أن الأسواق تحفظ الحقيقة وتصقلها بدل كونها تستغلها وتفسدها، وكما لو أن الاستهداف والاستفزاز لم يكونا قد أصبحا سمات دائمة لجميع أصناف الأسواق بما في ذلك أسواق الأفكار).[51] ليس هناك ضامن لاستمرار بقاء الليبرالية أو

(49) Max Weber, "Science as a Vocation," in *The Vocation Lectures*, ed. D. Owen and T. Strong, trans. R. Livingstone (Indianapolis: Hackett, 2004), 23

(50)Robert Eden, *Political Leadership and Nihilism: A Study of Weber and Nietzsche* (Gainesville: University Presses of Florida, 1984), 137–138.

(51) انظر، مثلا،

الديمقراطية عندما، كما يعرب عن ذلك فيبر، «يكون كل فرد ملزما بأن يقرر بنفسه ما هو... الشر، وما هو الخير بالنسبة إليه».[52] علاوة على ذلك، عندما تنتشر القيم وتتنوع وتُبخس، ستتشظى الشعوب والأوطان وتندثر. إن الاصطلاح الذي نطلقه على هذا الوضع- «حروب الاتجاهات الثقافية» أو الاستقطاب السياسي- يحسب الأثر من باب الخطأ سببا، ولا يحيط على هذا الأساس بالوضع التاريخي الذي صوره فيبر بدقة. وفقا لفيبر، إن انهيار السلطة الخاصة بالحكم الأخلاقي والسياسي هو العامل الرئيس الذي يؤدي إلى اجتثاث القيم أو إضعافها، وتسهل كل من العلمنة والعقلنة انهيارها أو تبخيسها. من هذا المنظور، إن الفروق بين الديني والعلماني، والقروي والحضري، والرجعي والتحرري التي ينادي بها النقاد أو المحللين هي تمظهرات لهذا الوضع وليست محركا له.

إن المعايير المتشظية أو المرفوضة بازدراء التي تنتج عن اجتثاث القيمة، والصراع الاجتماعي الذي ينتج عن الانتشار المطرد للقيم هي تمظهرات للعدمية. وينطبق نفس الأمر على صنف خاص من التسييس المفرط: يصير كل مظهر من مظاهر الحياة رمزا لرؤى العالم السياسية المتنافسة، أو يتم وسمه بعلامات تجارية داخل هذا

Brian Judge, "The Birth of Identity Biopolitics: How Social Media Serves Antiliberal Populism," *New Media & Society* (2022), doi: 10.1177/14614448221099587.

(52) Weber, "Science as a Vocation," 29.

الصراع.[53] يصل اليوم هذا التسييس المفرط للقيم (ومن ثم تَّتفيهها) إلى العادات الاستهلاكية، وبنى الأسرة، وديكور المنزل، وحيازة الأسلحة النارية، والمناهج الدراسية، واختيار الألعاب الرياضية واللاعبين الرياضيين، والممارسات البيئية، والموضة، والممارسات الجنسية، وتمثيل النوع gender presentation والاختيارات المتعلقة بنظام الحمية الغذائية واللياقة البدنية. علاوة على كون التسييس المفرط مؤشرا على الانتقاص من قدر القيم، وهو ما يقوم به بالفعل، فإنه يدخل أيضا الوسائط الأساسية المستعملة في السياسة- القوة، والخداع، والتلاعب بالمظاهر- إلى جميع المجالات. تسود ميكيافيلية فجة في كل مكان: وبصورة معكوسة، تصير أيضا القيم الأخلاقية والمعرفة ذاتها أدوات لتحقيق أغراض السلطة، وهو إضفاء للطابع الأداتي instrumentalization يقوض أيضا نزاهة وأهمية كل طرف منهما. وفي الوقت نفسه، يتخلى القانون والدين حتى عن الادعاء بكونهما لا يحوزان وضعا سياسيا (لنتأمل التسييس اليومي للتعيينات، والتأويلات، والقرارات القضائية من ناحية، ومحاولات الدين النظامي مراوغة القيود القانونية التي تفرض على المشاركة السياسية من ناحية أخرى). تعمق هذه التأثيرات مجتمعة

---

(53) من المهم التمييز بين بين هذا النوع من التسييس- الخاص بقصات الشعر أو أنواع شراب البيرة- والتسييس الذي يقترن بزيادة الوعي المرتبط بقضايا الطبقية، أو العرق، أو الجندر، أو الممارسات الإنتاجية والاستهلاكية غير المستدامة. يتصل النوع الأول باختيارات تافهة تتعلق بالذوق والتي تستعمل لتمثيل المواقف السياسية. ويتصل النوع الثاني بعلاقات القوة التي تنظم الحياة المشتركة، ويشكل الموضوع الرئيس الذي تتمحور حوله السياسة.

من نزوع الشك في الحقيقة، والمواقف الأخلاقية، وصدق الإيمان وقيمة القانون بوصفه حكما ومجيرا محايدا. ويجعل هذا الشك من التفاف القوى العدمية أكثر حدة.

أخيرا، يصوغ مارك وارن Mark Warren ما يمكن أن يفهم، عند فيبر، بوصفه أطروحة ضمنية ل «العدمية البيروقراطية» أو «البيروقراطية بوصفها صورة للعدمية المؤسسية» في الأنظمة العلمانية.(54) وبما أن البيروقراطيات (والتكنوقراطيات في وقتنا الحاضر) تقوم على أساس الفصل بين الوسائل والغايات، ويقوم وجودها على الرفع من الفعالية التقنية الخالصة، فإنها تخفق في تجسيد «عقلانية القيمة». لا تلتفت هذه البيروقراطيات إلى القيمة من الناحية الرسمية على الرغم من أن ذلك لا يجعلها مجردة من المعايير من الناحية العملية. تكتسب الخصائص البيروقراطية قوة عدمية عندما يتأتى للبيروقراطيات السيطرة على الفضاءات مثل فضاء السياسة بدلا من اقتصارها فقط على خدمة الأهداف السياسية. ويحدث هذا عندما يصير جهاز الدولة هو الدولة، ويستوعب الزعامات السياسية ويفسدها بتوريطها بيروقراطيا. علاوة على ذلك، عندما تقوض هذه السلطة تلك التي يتمتع بها كل من الزعماء والمؤسسات، فإنهم «يتخذون في الواقع قرارات سياسية غير مسؤولة تحت ستار الخبرة التقنية».(55) لذلك إن الروح اللاإنسانية الراسخة في البيروقراطية لا تقوض فقط وبصورة متزايدة صنع

(54) Warren, "Weber's Liberalism," 34.
(55) Warren, "Weber's Liberalism," 35.

القرار والفعل اللذين توجههما القيمة، ولكن أيضا القيم نفسها.

وبالنظر إلى إدراك فيبر القوي لأصول العدمية المختلفة في الحياة السياسية المعاصرة، كيف ولماذا يمكن أن يكون الفضاء السياسي، بالنسبة إلى فيبر، مجالا لمقاومة العدمية وتجاوزها؟ وعندما تتراجع السلطة الدينية والأخلاقية، وتصير السياسة نفسها مشبعة بالتأثيرات العدمية كيف يمكن أن تصبح الحياة السياسية مسرحا لتجديد القيم، وإعادة بناء النزاهة الإنسانية المطلوبة لدعم القيم الجوهرية والعيش بها؟ تتجلى براعة فيبر في محاضرة «السياسة بوصفها حرفة» من خلال مواجهته المباشرة لمعضلات العدمية، وإصراره على أن الزعامة السياسية ينبغي أن تحدد مسارها، وأن تطور أخلاقياتها انطلاقا من هذه المعضلات، ولاسيما من خلال فقدان الأسس الأخلاقية، والتداخل الدائم للأهداف السياسية مع ما يسميه «القوى الشيطانية» للسياسة. سننتقل الآن إلى هذا المحاضرة.

«السياسة بوصفها حرفة»

في الثلثين الأولين من محاضرة «السياسة بوصفها حرفة» المتصفين بالكآبة، والرتابة المقصودة، يسطر فيبر بالتفصيل التطور التاريخي والآثار الناجمة عن العقلنة في السياسة الحديثة، التي أفرزت، من ناحية، عقليات بيروقراطية وإدارية، ومن ناحية أخرى آلات حزبية،

ومأجورين سياسيين تابعين للحزب hacks ومكافآت تمنح لهم.(56) ووضح أيضا الطرق التي تقترن بها الآلات الحزبية مع حق الانتخاب الذي يشمل الجميع لكي تنتج جماهير لا تبدي اهتماما بالعقل والوقائع، ومتعطشة للخطابات الديماغوجية. إنهم عاجزون عن فهم العلاقات الداخلية والخارجية التي تحكم الدول الحديثة، وبالتالي لا يمكن تمثيلهم بل قيادتهم فقط. وبخلاف ما كان يجري في القرن الماضي، عندما كان الزعماء السياسيون الطامحون ربما قد وظفوا «أسلوبا خطابيا يقوم على العقل»، فإنهم اليوم «يلجؤون إلى استعمال لغة مثيرة للمشاعر... لحشد الجماهير». يخلص فيبر إلى أن ديمقراطية الاستفتاء هي أقصى ما يمكن أن يعقد عليه الأمل حاليا، ويصفها بدقة على أنها «ديكتاتورية تقوم على استغلال الطبيعة الوجدانية للجماهير».(57) إنها وصف كئيب صيغ بنية الكشف عن السبب الذي يجعل اختزال الديمقراطية في صورتها الأساسية ضرورة لإجراء التصويت العام.

---

(56) Max Weber, "Politics as a Vocation," in *The Vocation Lectures,* ed. D. Owen and T. Strong, trans. R. Livingstone (Indianapolis: Hackett, 2004), 67–72.

من المؤكد أن فيبر ينوي جعل أطروحة العقلنة منتشرة على الرغم من إقراره بأن تأثيرها سيتمظهر بطرق مختلفة وفي فترات زمنية متباينة داخل فضاءات متعددة. غير أن هناك مظاهر سياسية أساسية تخرج عن إطار هذا التأثير: يفيد حضور السلطة، والفعل، والعنف، ومن ثم الطابع العرضي الذي يشكل الحياة السياسية أنه كلما أفسحت السياسة المجال كاملا للإدارة إلا وقوضت الأسس التي تقوم عليها. وترقى هذه العناصر إلى صورة معدلة «لاستقلالية» المجال السياسي، حتى عندما تقيد الأجهزة الإدارية والحزبية الفاعلين، أو عندما تعاني من أشكال استنزاف المعنى وسيطرة العقلية البيروقراطية التي تعد صفة مميزة للحداثة.

(57) Weber, "Politics as a Vocation," 67.

يبتكر فيبر نموذجا للزعيم السياسي المثالي في ارتباط بهذه الشروط، لكن بطريقة تهدف أيضا إلى إعادة الإمكانات العظيمة إلى الحياة السياسية. إنه نموذج مستمد من ماض قبل بيروقراطي وقبل عقلاني، ولكنه يطبق دون عاطفة أو حنين إلى الماضي. تنشأ الخاصية «البطولية» لرجل السياسة عند فيبر في هذا السياق بالضبط بوصفها علاقة تتصل بالشروط المعاصرة البئيسة للسياسة، وبآثار العدمية التي نحن بصدد فحصها. إن البطل السياسي الرصين في الحداثة لا يكافح ضد الجيوش أو الطغاة المجتاحين، بل يناضل ضد الجمود البيروقراطي وأشكال الاستغلال الحزبي، وسذاجة الجماهير، والكلبية، والروح الانهزامية، وإغراءات السلطة المجردة من النزاهة، والمسؤولية، وبعد النظر، والهدف. تكمن البطولة في مواصلة المسير في هذه الظروف الصعبة، مع السعي بحس من المسؤولية إلى تحقيق هدف سياسي يكتسي أهمية كبرى، ويحتمل أنه سيغير مسار التاريخ.

إن الخصائص الباطنية التي عينها فيبر في ارتباط بالحرفة السياسية معروفة بشكل واسع. إن زعيمه السياسي المثالي ينجذب إلى السلطة لكنه لا يتأثر بإغرائها.[58] إنه راض عن قدرته على التأثير في الناس والتاريخ، لكنه يتغلب في «كل يوم وكل ساعة» على إغواءات الغرور والنرجسية.[59] إنه لا يحيد عن تكريس نفسه لتحقيق نظرته للعالم، ولكنه ليس أنانيا وليس مهووسا، ولكنه متواضع لإدراكه أن كل

(58) Weber, "Politics as a Vocation," 77–78.
(59) Weber, "Politics as a Vocation," 77.

قضية ما هي إلا مسألة ترتبط بالاعتقاد وليس الحقيقة.[60] تستند سلطته إلى الكاريزما، بينما أفعاله يوجهها القيد وبعد النظر. إنه يتبنى سلوكا أخلاقيا بمراعاته للظروف الخاصة، بدلا من المبادئ التي تعطل أو تتجاهل السياق والآثار الناجمة عن الأفعال، ولاسيما تلك التي تكون غير متوقعة.[61] إنه يثابر باستماتة على الرغم من النكسات وخيبات الأمل العميقة.[62] إنه يقاوم الكلبية، والقدرية، واليأس.

تعمل كل من هذه الخصائص والممارسات التي طورت بعناية كرد فعل لإبطال أشكال الهدم التي تمارسها العقلانية والعدمية على القيمة. وتركز كل واحدة منها على هدف محدد في العالم الدنيوي، وتتحاشى البحث عن إرضاء الأنا والرغبة في الاستعراض الرخيص. وتشكل كل واحدة منها الرغبة السياسية بوصفها مبتغى كل واحد في أن يطبع العالم بتصوره الخاص؛ ويبقي كل واحد تطوير سلطته وسمعته وصقلهما في ارتباط بهذا الهدف الدنيوي. وبالجمع بين هذه الخصائص، فإنها تشير، بمعية التوترات والانتصارات التي تستتبعها، إلى أن مفهوم رجل السياسة المثالي عند فيبر ليس نتاجا عضويا لبيئته. إنه ليس راسخا في شروط بيئته، على الرغم من أنه ينبغي له أن يكون فطنا بها ومدركا لها؛ بدل ذلك، يُستمد هذا المفهوم من «الحرفة» ومن مصادر باطنية نادرة. ولتوضيح هذا التوليف،

(60)Weber, "Politics as a Vocation," 78–79.

(61) Weber, "Politics as a Vocation," 82–83.

(62) Weber, "Politics as a Vocation," 93–94.

يعتمد فيبر بحرص شديد ومسؤولية على معجم محدود يتألف من «الهدف» بالإضافة إلى «القيد» و«الثبات» و«الرصانة». وعلى الرغم من سعيه إلى الربط بين هذه السمات والكاريزما (التي سنتناولها أكثر قريبا)، فإن الرصانة، والقيد، والثبات نادرا ما تشكل سمات مألوفة في الكاريزما. وبصورة مماثلة، يستند فيبر إلى بقايا المفهوم البروتستانتي التي عُلمِنت secularised والمتعلقة بخدمة الرب من خلال العمل الدنيوي، لكنه يلغي مفهوم القدرة الإلهية الكلية ويستبدله بنظرة للعالم Weltanschauung تفتقر إلى أساس متين يسندها رغم كونها جذابة. ولم يقيد فيبر أيضا هذا المفهوم بفكرة «الأصالة»، بوصفها توجها جنونيا استهجنه في زمانه بوصفه توجها ضعيفا، ومتساهلا، أو يعرف تدهورا، ويتعارض بصورة أدق مع ما يسعى إلى الارتقاء به من رشد وانضباط زهدي، وضبط للنفس، ومواجهة للحقائق الصعبة[63] .

باختصار، يستمد مفهوم الزعيم السياسي عند فيبر من مفهوم *الاحتراف* Beruf بوصفه مُعَلمنًا ومبنيا، ويبدو أنها بنائية جلية لم يجد التأكيد عليها أمرا ضروريا.[64] وبما أن هذا المفهوم لا ينشأ عن

---

(63) David Owen and Tracy B. Strong, "Introduction," in Weber, *The Vocation Lectures,* xlii–xlv.

(64) إن العالم الإنساني بالنسبة إلى فيبر هو عالم مُبتكَر بالكامل- يمتد من المؤسسات والقيم وصولا عند السياسي الذي يوجهه هدف. تنبثق البعض من مظاهر هذا الابتكار على المنطق الذي يحكم القوى التاريخية مثل العقلانية أو تمظهرها في الرأسمالية. وينشأ جزء منها عن الفعل، وهو السبب الذي يجعل فيبر يصر على أنه «لم يكن ليتحقق الممكن لولا سعي الناس مرارا وتكرارا إلى تحقيق المستحيل في هذا العالم» "Politics as a Vocation," 93.

الاستدلال الجدلي أو المحايثة، ولا تُوجِّهُهُ العلوم الاجتماعية والدين، فإن هناك إمكان لنشوء تغيير سياسي بفضل زعماء لديهم الإصرار، والقوة، والجَلَد لمقاومة نزوعات عصر عدمي، ويدفعهم التزام متقد بتحقيق هدف يعم بالخير العام. يمكن فهم رهان فيبر على النحو الآتي: إنه لا يؤيد إسقاطا ثوريا للقوى المتحكمة في الحاضر (الذي يخشى أن يقود ربما إلى آلة أخرى من آلات السيطرة)، ولا يؤيد الاستسلام لهذه القوى (التي ستؤدي فقط إلى تقوية شوكة العدمية). ولا يؤيد الانسحاب من الفضاء السياسي للبحث عن المعاني والقيم الإنسانية الجمعية في مجالات روحية أو أخرى وجودية. فقط الزعامة السياسية الكاريزمية المسؤولة هي القادرة على تجديد، واستعادة، القدرة الإنسانية الفريدة على تشكيل الحياة العامة أو توجيهها في ارتباط بالقدرة على ابتكار القيمة.

لماذا الكاريزما؟ ما العناصر التي نتجت عن تعديلها الباطني وخصائصها الخارجية التي نرتاب منها كثيرا اليوم، والتي يستند إليها فيبر للخوض في موضوع العدمية في السياسة والثقافة السياسية، أو لمعالجته بطريقة حذرة؟ من ناحية، يسعى فيبر، بطبيعة الحال، إلى استثمار الدعوات التي تنادي بالديماغوجية دون أن يخضع لها. وعوضا عن ذلك، يسعى إلى إعادة توجيهها. لكن هناك ما هو أكثر من ذلك. فمن بين أنماط السلطة الثلاثة التي اشتهر فيبر بتصنيفها- الكاريزماتية، والتقليدية، والعقلية-القانونية- تحصل الأولى وحدها على الطاعة من خلال تصديها لأوضاع الحاضر

القائمة، وسلطاته، وإجراءاته الروتينية، وتوجيهاته، وافتراضاته. إن الكاريزما وحدها هي القادرة على منازعة القوى والأجهزة التي تسيطر على الحاضر عن طريق عرضها لتصور بديل. وهي القادرة على التصدي لعالم منزوع السحر بتقديمها لمسار بديل لتحصيل المعنى. بالنسبة إلى فيبر، تمارس الكاريزما تأثيرها عن طريق تعطيل ما هو مألوف ومعطى، وتسليط الضوء على بديل آخر له في سياق مختلف. إنها تتصدى للأزمة العدمية التي تصيب القيمة عن طريق رفض الحاضر المنهار، وتقديم تصور يسوغ ذلك الرفض. إنها تتصدى أيضا لانعدام الروح الإنسانية في العدمية المؤسسية، عندما تقطع صلتها بالمأسسة، والإدارة، وإضفاء الطابع الروتيني كي تعيد ربط الحياة السياسية بالمبادئ والفعل.

تُعرَّفُ الزعامة الكاريزماتية بأنها طبيعة القيم الأخاذة التي يبشر بها القائد أو يجسدها، وهي على هذا النحو تجعل القائد الكاريزماتي مختلفا عن الديماغوجي. فبالإضافة إلى كونها ثورية لكن ليس بالمعنى الماركسي، فإنها تتصدى أيضا للصفات المستنفِدة للقيمة التي نلفيها في السلطة العقلانية-القانونية. إنها تَعِدُ بإعادة السحر إلى العالم عندما تعيد تشكيله. وفقا لفيبر، تختلف الزعامة الكاريزماتية عن الأنماط الثورية الأخرى، ناهيك عن هوس العظمة المألوف الذي ينشأ عن توازنها الخاص الذي تقيمه بين «الإصرار الباطني» و«الضبط الباطني»، حيث يترجم [الأول] أحيانا بوصفه حافزا

باعثه ذاتي و[الثاني] بوصفه قيدا يفرض ذاتيا.[65] فكلما استُمِدَّت الكاريزما من تضخم الأنا إلا وانهارت (سيكف الأنا عن كونه وسيلة لتحقيق السبب، ليصير بدلا عن ذلك هو السبب). وبصورة مماثلة، كلما صارت الكاريزما رسمية، أو مضبوطة التنظيم، أو مؤسسية إلا وزالت (ستضحي المأسسة بالشخصية).[66] لا تنشأ قوة الكاريزما فقط من الشروط المؤسسة لها، بل إن قدرا كبيرا منها ينشأ عن هذا التوتر الرئيس الذي يحصل بين الإصرار العاطفي والقيد. يفسد الإصرار الفج وحده السبب أو يربكه، أو يحوله إلى طموح طائش. وفي المقابل، يميل القيد وحده نحو الاعتدال، أو التسوية، أو العزوف عن الفعل. لكن عندما يجتمع الإصرار والقيد في علاقة متوترة، فإنهما يؤلفان القوة المحركة للعالم التي تشكل جوهر الزعامة الكاريزماتية. ويتجسد هذا التوتر في الإطار الأخلاقي المتميز الذي وضعه فيبر للفعل السياسي. يؤلف هذا الإطار الأخلاقي، الذي سنتناوله لاحقا بالتفصيل، بين «شغف متأجج ومنظور عقلاني متوازن» لتحقيق ما يسميه «قسوة مروَّضة» موجهة نحو هدف (أي ما قد أسماه البعض كانطية سياسية) واتخاذ

(65) Weber, *Economy and Society,* ed. G. Roth and C. Wittich (Berkeley: University of California Press, 1978), 1112.

(66) يكتب فيبر قائلا في كتابه «الاقتصاد والمجتمع»: « يحمل [صاحب الكاريزما] على عاتقه مهمة أعدت له، ويطالب الآخرين بالخضوع له واتباعه بمقتضى مأموريته. ويسقط ادعاؤه إذا امتنع أولئك الذين يعتقد بأنه بعث فيهم عن الاعتراف به؛ أما إذا اعترفوا به، فإنه يكون سيدهم طالما أنه يثبت كفاءته » (1112)

«مسافة عن الناس والأشياء».[67]

إن الشغف بتحقيق الهدف، وضبط النفس، والعزم، والمنظور العقلاني المتوازن، ومفهوم المسافة النفسية pathos of distance الذي أخذه فيبر عن نيتشه وحوله عن طريق تجريده من معانيه الأرستقراطية وإدخال مفهوم الزهد عليه - كلها مفاهيم تتصدى مجتمعة للانفعالات العدوانية غير المتسامية de-sublimated aggressions، والانشغالات التافهة، والحقد، والاستغراق في الذات، والرغبة في تحقيق الإشباع اللحظي في ثقافة تتسم بالعدمية. وتتعارض هذه الخصائص مع ما يراه فيبر دوافع سياسية أخرى في زمانه- المقاربات الإدارية، والقانونية، والتكنوقراطية، بالإضافة إلى الحساسيات التي يذمها مثل «الحماس العقيم» لدى الثوريين و«المثالية الساذجة» لدى الأصوليين والطوباويين، و«العبث الفكري الطائش» لدى المتباهين والنرجسيين.[68]

لكن وكما أشرت سالفا، إن مزج غريزة القوة الضارية والشغف عند نيتشه مع انعدام التمركز حول الأنا وحضور الضبط الزهدي عند كانط يبقى مزجا غير مريح في أحسن أحواله. إن السعي الرزين بإصرار ومسؤولية إلى تحقيق هدف لا تحركه دوافع شخصية ليس صورة اعتيادية للشغف، لاسيما في عالم يتسم بالعدمية، حيث تكون

(67) Weber, "Politics as a Vocation," 76–77. For a discussion of political Kantianism, see Owen and Strong, "Introduction."

(68) يهيمن هذا العبث على الأوصاف التي تلحق بالسياسة في البرامج التلفزيزنية المعاصرة مثل سلسلة *West Wing* و*Scandal* و*House of Cards*.

ندرة «الرصانة الذاتية»، وانغماس الثرثارين المتبجحين في نشوة الأحاسيس الرومانسية أمرا شائعا.[69] لذلك، إن السلوك وروح الجماعة اللذين يصفهما فيبر يقتضيان توجيه الشغف خارج مساره الطبيعي بتأجيل حالات إشباعها أو رفضها مجتمعة، وصبغها بـ«عادة اتخاذ المسافة بكل الطرق الممكنة».[70] وعلى هذا النحو يكون فيبر قد ابتكر شخصية مستحيلة تقريبا: شخصية كاريزماتية لديها غريزة قوية لممارسة السلطة power، لكن يحركها بشكل خاص الحرص على العناية بالعالم، شخصية يكون كدحها كل يوم شبيها بـ«حفر متأن وقوي على ألواح صلبة»، وتكافح ضد آلات السلطة القائمة، ومقيدة، وفطنة، ومنفصلة، وملتزمة بمسؤولياتها بشكل كامل.

لكن قبل مواصلة البحث في هذه المشكلة على نحو أعمق، نحن في حاجة إلى التساؤل، لماذا يؤيد فيبر المسؤولية بدلا من العقل بوصفها القوة الموجهة للشغف السياسي ما دامت كل من العدمية والديماغوجية لا تتيحان استعمال العقل إلا نادرا؟ ففي عصر تسيطر فيه العقلانية الأداتية instrumental rationality، لا يضيف العقل وحده سوى الحساب أو العقلنة لأي هدف. عندما يقترن الشغف بالعقل الأداتي، فإن ذلك يخلق نزوعات سياسية أشد خطورة، حيث تستعمل الغايات لتبرير الوسائل، ويحول كل شيء- القوانين، والأفراد، والأديان، والمبادئ- إلى وسائل، أو يحط من

---

(69) Weber, “Politics as a Vocation,” 92.

(70) Weber, “Politics as a Vocation,” 77.

قدرها لخدمة أغراض منافية لقيمتها الأصلية. وعليه، ينبغي ألا يوجهنا العقل الحسابي calculative reason وحده، بل لا بد من وجود إطار أخلاقي فريد يستند إلى تحمل مسؤولية ما يخلفه الفعل من آثار، ولاسيما الآثار الجانبية غير المقصودة. يعد هذا الإطار الأخلاقي ضروريا لتوجيه الشغف السياسي وجعله معتدلا دون إعاقته.

بالإضافة إلى تفادي الأداتية، يراد من أخلاقيات المسؤولية ضبط الغرور بوصفه «العدو المقوض للإخلاص لأي قضية، وللمسافة التي نتخذها بعيدا عن ذواتنا». يرى فيبر أن الغرور هو تلك اللحظة التي تستولي فيها غريزة السلطة السياسية التي تعد أساسية بالنسبة إلى أي فاعل سياسي على القضية لتصير «انتشاء مستغرقا في الذات».[71] ويمثل الغرور أيضا تماهيا مع الأثر الذي يسعى الفاعل إلى أن يتركه على التاريخ، ومع السلطة التي يستخدمها لتحقيق هذا الهدف، بدلا من ترك مسافة نفسية بينه وبين ما يسعى إلى تحقيقه. عندما يصير الفاعل السياسي هو القضية وليس حاملا لها، تتلاشى الانعكاسية، والتجرد النفسي، وضبط النفس، والأهم من ذلك المسؤولية، ويصير إغراء السلطة مركز الاهتمام.

يمعن فيبر النظر بإسهاب في مشكلة الغرور، لأنه يرى أنها ليست فقط سمة خاصة ببعض الشخصيات، بل يعتبرها مرضا مستوطنا في السياسة، لاسيما عندما تسود العدمية، دون أن يكون ذلك حصرا

(71) Weber, "Politics as a Vocation," 77.

عليها. حينما «يكون الديماغوجي ملزما بإعطاء الأولوية لإحداث «أثر»، فإنه يواجه على الدوام خطرا مزدوجا يتمثل في التحول إلى فاعل، وفي استخفافه الكبير بتحمل مسؤولية أفعاله». يعد نقد فيبر هنا لاذعا: «على الرغم من أن السلطة، أو بالأحرى بما أنها أداة حتمية في السياسة، وأن السعي الحثيث إليها، بناء على ذلك، هو قوة دافعة لها، فليس هناك من تشويه هدام للطاقة السياسية أكثر من *وافد* جديد يختال، متباهيا بسلطته، ومستغرقا في التفاخر بالمجد الذي يأتي من اعتراف الآخرين وإعجابهم». يدين فيبر «اللامبالاة البئيسة والسطحية تجاه المعنى الكامن في النشاط الإنساني» الذي يجسده هذا الوضع.[72] ويمثل هذا الوضع، الذي يتصف، بعدم خدمته لأي مصلحة خارجة عن ذاته، وغياب حس المسؤولية الملازم له، تجسيدا خالصا للعدمية، وتعد هاتين الصفتين، وفقا لفيبر، ذنبين لا يغتفران في المجال السياسي.[73]

وبغض النظر عن مشكلة الغرور، إن حجة فيبر المؤيدة لإيتيقا سياسية متمركزة حول المسؤولية تؤول كما هو متعارف عليه بوصفها ردا على الآثار غير المتوقعة للفعل (ما يسميه «تراجيديا الفعل» أو «اللاعقلانية الإيتيقية في السياسة») في فضاء تحفه «قوى شيطانية» والتي تنطوي تحديدا على العنف.[74] وعندما يجمع هذا الإطار

(72) Weber, "Politics as a Vocation," 78.

(73) Weber, "Politics as a Vocation," 77.

(74) لقد كتب الكثير حول إيتيقا المسؤولية عند فيبر. أنظر، مثلا، المقالات التمهيدية في كل من الترجمات الإنجليزية الحديثة جدا [see *The Vocation Lectures,* ed. D. Owen and T. Strong, trans. R. Livingstone (Indianapolis: Hackett, 2004), and

الأخلاقي بين الحذر من السلطة ورسوخ القناعة، فإن فيبر يقدمه بوصفه حلا للخوض في البدائل غير المريحة في الحياة السياسية. ويشمل الاختيار بين بدلين غير مريحين الاستناد إلى سياسة القوة* Machtpolitik الخالصة من ناحية، واختزال السياسة في مبادئ أخلاقية أو إيتيقية من ناحية أخرى. اتجهت هذه الحجة أيضا إلى التصدي للعقلانية التي تقوض الحرية والعظمة، والعدمية التي تختزل السياسة في ممارسة السلطة دون حق موجب لذلك، والعنف دون مسؤولية، مما يؤدي إلى تحويل القيمة إلى أداة بل وإلى تبخيسها. ونظرا لارتباط أخلاقيات المسؤولية بالزعامة، فإنها تهدف إلى إعادة مركزة القيم في قلب السياسة بعد أن هدمت العلمانية أساسها، وقوضت العقلانية مكانتها، ومحقت العدمية عمقها وكرامتها. لذلك لا يعد هذا الإطار الأخلاقي اعتقادا شخصيا فقط، بل يعرضه فيبر بوصفه روحا للجماعة ethos يمكن أن تساعد على استعادة السياسة بوصفها مجالا لـ«الصراع حول القيم النهائية» مع تفادي

Charisma and Disenchantment: The Vocation Lectures, ed. Paul Reitter and Chad Wellmon, trans. Damion Searls (New York: New York Review of Books Press, 2020)] as well as Shalini Satkunanandan, "Max Weber and the Ethos of Politics beyond Calculation," *American Political Science Review* 108, no. 1 (2014): 169–181; Corey Robin, "The Professor and the Politician," *New Yorker,* November 12, 2020; Antonio Vazquez-Arroyo, *Political Responsibility: Responding to Predicaments of Power* (New York: Columbia University Press, 2016).

يتمحور انشغالي الوحيد بالدلالة التي تحملها هذه الإيتيقا طالما أنها تنشأ عن عصر عدمي وتتصدى له.

المخاطر الناتجة عن توظيف القيم كسلاح (وبالتالي الحط من قيمتها)، أو الخلط بين المجالين السياسي والديني. وتعد هذه الروح الجماعية ضرورية لإدماج القيم في مشروع مواجهة العدمية على المستويين الفردي والمجتمعي. وتسعى أيضا إلى إعادة تأسيس المسؤولية في سياق نظام إيتيقي لاعقلاني يفلت فيه دائما من سيطرتنا ما نسعى إلى سنه، ومع ذلك نتحمل مسؤولية أفعالنا التي أسهمت في النتائج التي تترتب عنه. تستحق هذه الاستراتيجيات ما بعد العدمية كل على حدة فحصا دقيقا.

تجري مناقشة إيتيقا المسؤولية في بداية محاضرة «السياسة بوصفها حرفة» وعند نهايتها. يبدأ فيبر المحاضرة بتقديم تعريف ضيق للسياسة بوصفها قيادة لتنظيم سياسي («بتعبير آخر، دولة»)، ويعلن بعد ذلك بصورة مثيرة للفضول أن الدولة الحديثة يمكن أن تكون مشروطة من الناحية السوسيولوجية بالإحالة على وسائلها الاستثنائية، لاسيما احتكارها للعنف المادي.[75] يدرك فيبر بأن هذا الوصف يفرط في تبسيط طبيعة الدول، بل وحتى وسائلها الاستثنائية؛ ويخصص الصفحات التي تلي في المحاضرة لنشأة الدول وتوطيد أركانها، وأجهزتها ومؤسساتها، وتنظيمها الفريد للحياة السياسية. ويماثل أيضا غايات الدولة بتحقيق المجد. فلماذا إذن يعرِّفُ الدول أساسا باحتكارها للعنف؟

يركز فيبر، من ناحية، على العنف لبناء انتقاداته للاشتراكية،

(75) Weber, “Politics as a Vocation,” 32–33.

والماركسية الثورية، والنزعة السلمية المسيحية المناهضة للحرب. ويعتقد أن كل مذهب من هذه المذاهب يسعى على نحو ماكر وخطير، وإن كان ذلك بطرق مختلفة، إلى فصل فضائله الصورية عن حضور العنف الراسخ فيه. وبصورة أعم، ينشغل فيبر بالنتائج المدمرة التي تنشأ عن السماح للغايات السياسية بتبرير الوسائل، وهو نزوع قوي ظهر في عصر العقلانية الأداتية. إن تخصيص السياسة بتمركزها حول الدولة، والدول بتمركزها حول العنف يعيد ربط الوسائل الأساسية في الحياة السياسية الحديثة - عنف الدولة- بأي تصور أو مشروع سياسي. تؤكد إعادة الربط هذه على الاستعمال المتعمد للعنف وعلى التداعيات العارضة لعدم تقييد هذا الاستعمال بوصفهما مظهرين حتميين في السياسة. يخيم كلا هذين المظهرين على جميع الأفعال والأحداث السياسية، سواء كان الهدف هو قيادة الدولة، أو الاستيلاء عليها، أو هدمها؛ منع الصراعات المسلحة، أو إشعال شرارتها، أو المشاركة فيها، أو إيقافها؛ تشريع قانون ما، أو إصلاحه، أو إلغاؤه. يشدد فيبر من جديد على العنف في تحليله للسياسة لا لكي يؤكد على أنه يشكل جوهر الممارسة السياسية- إنه لا يعدو كونه أداة، ويكتسي الصراع على القيم بالنسبة إليه أهمية أكبر. بيد أنه بالنسبة إلى هذا المنظّر المتضلع الذي يفهم كيف يمكن للوسائل أن تستوعب الغايات، ليست الوسائل بالمرة مجرد أدوات لتحقيق هدف وحيد. ولذلك، فإنه يسعى إلى التصدي وإلى إزاحة أولئك الذين يتمسكون بمبادئهم أو الذين يسوغون أفعالهم دون الالتفات إلى الدور الذي تضطلع به هذه الأدوات:

في جميع الأحوال، إن كل من يسعى إلى الانخراط في السياسة... يدخل في علاقات مع قوى شيطانية كامنة في أفعال العنف. إن العارفين العظماء المعروفين بصلاحهم الروحي وحبهم للإنسانية، سواء كانوا من الناصرة Nazareth، أو أسيزي Assisi أو الأماكن الموقرة في الهند، لم يسبق لهم أن استعملوا الطرق السياسية التي تنطوي على استعمال القوة. إن مملكتهم «لم تكن تنتمي إلى هذا العالم»، ومع ذلك فقد امتد تأثيرهم إلى هذا العالم... إن كل من يسعى إلى خلاص روحه وروح غيره لن يجد ضالته في السياسة ما دامت السياسة منشغلة بمهمات أخرى مختلفة، وهي مهمات لا يمكن إنجازها إلا باستعمال القوة.[76]

يذهب فيبر إلى أبعد من التحذير من الخلط بين الاستقامة والموقف السياسي، أو من الخلط بين الدين والسياسة، ويدين بدلا عن ذلك الانشغال بالمبدأ الطاهر في المجال السياسي معتبرا إياه خطأ أساسيًّا في التصنيف. إذا كان المجال السياسي تتخلله قوة *شيطانية* ناتجة عن العنف الإنساني المنظم، فإن إنكار هذا الواقع ليس فقط سذاجة بل هو عمل غير مسؤول. يعلم فيبر أن عددا مهما من أنصاره ينكرون ذلك أيضا. ويتحدد هدفه الفكري في التصدي لهذا الإنكار عن طريق تطوير إيتيقا للمسؤولية خاصة بالسياسة. بيد أن هدفه العملي هو تحميل الفاعلين مسؤولية الوسائل التي يستعملونها والغايات التي يسعون إلى تحقيقها مع الاحتفاظ بتمييز تحليلي واضح

(76) Weber, "Politics as a Vocation," 90.

بينهما. ويؤكد أن الفعل أو الفاعل نفسه يتحمل مسؤولية هذين المظهرين، وأن السياسة تشملهما دائما. فلا المبدأ المجرد، ولا الحساب [الاستراتيجي] الخالص الذي يوجه نحو تأمين أو تعزيز سلطة أو هدف أي طرف يحوز مكانة في الإيثوس ما بعد العدمي أو الفعل السياسي ما بعد العدمي.

يشتهر فيبر بإقامة تمييز بين أخلاقيات المسؤولية وجنسين آخرين من الأخلاقيات. يسمي واحدة منها بـ «الأخلاقيات المطلقة» وتتصف بالتقيد الصارم بقانون أخلاقي ما، مثل الفضيلة المسيحية، أو المبادئ الرافضة للعنف. يغض أتباع هذه الأخلاقيات الطرف عن «تراجيديا الفعل» التي تنطوي على ثغرات بين الحافز، والهدف، والأثر، والتي يرى فيبر أنها تشكل لاعقلانية راسخة في المجال السياسي. ويخفق هذا الإطار الأخلاقي في مسايرة النظام العقلاني حيث توجِّه القصودُ الأفعالَ والآثارَ الناتجة عنها.[77] ولذلك، يعد

(77) يقدم Shalini Satkunanandan تذكيرا مفيدا يقول بأن إيتيقا المسؤولية ليست حسابا للتكلفة والفائدة أو الفعالية. إن المكونات الأساسية للسياسة بدءا من الفعل والسلطة، وصولا إلى وضعها كصراع حول «القيم النهائية» تتضارب مع هذه الحسابات، وهو ما يدعو إلى افتراض نظام للأشياء يكون عقلانيا ومن ثم قابلا للتوقع Satkunanandan, "Max Weber and the Ethos of Politics," 170–173.

يرى Corey Robin أن ماكس فيبر لا يتجاوب مع الفعل بوصفه يُنتِج بصورة محتملة عكس النتائج المقصود تحقيقها، ولكن بوصفه فعلا يعرقله الضغط الذي تمارسه البيروقراطية والمؤسسات. «في الوقت الذي كان ميكيافيلي يرى أن الفارق بين القصد والنتيجة فرصة لنشوء فاعلية أكثر تطورا، حيث ينتج الأمير أثرا مقصودا بتعمده القيام بعكس ما يؤدي إليه، لم يكن فيبر يثق كثيرا في قدرة السياسي على التلاعب بالنتائج. إن الوسيط الذي يستند إليه الفعل السياسي- بيروقراطيات الدولة الحديثة، والعلاقات العنيفة بين الدول والتنافس الإمبريالي- كانت معقدة » Robin, "The Professor and the Politician."

عدم التنازل عن تحمل المسؤولية على النتائج المترتبة، لاسيما الآثار غير المقصودة، ضروريا بسبب هذه الثغرات تحديدا. إنه يمنع قول «عفوا، لم أقصد أن يحدث ذلك» كعذر عن أي أثر يترتب عن الفعل، سواء كان عن قصد أو عن غيره. إن الأخلاقيات المطلقة التي يسميها فيبر أحيانا «أخلاقيات القناعة ethic of conviction» لا تسعى كثيرا إلى الإتيان بالبراهين لمواجهة هذا البعد في السياسة، لأنها تنكر وجوده. وعادة ما توجه سهام نقدها كذلك، كما يقول فيبر، لعالم «على درجة كبيرة من الغباء أو الدناءة» لا يمكن معها إقناعه أو حكمه بالاستناد إلى مبادئها. وهكذا، تكشف الأخلاقيات المطلقة عن نفسها بوصفها صورة من صور الكراهية تجاه السياسة.

ترفض المقاربة الثانية المتباينة مع أخلاقيات المسؤولية عند فيبر، والتي يسميها «أخلاقيات الغايات النهائية»، اللاعقلانية الإيتيقية في السياسة بطريقة مختلفة عن «الأخلاقيات المطلقة». ليست المبادئ هي التي تحدد أخلاقيات الغايات النهائية، بل الالتزام بتحقيق هدف عقلاني يتم تصوره بشكل عام خاليا من التشوهات التي تسببها السلطة power أو الحزبية. إنها تعالج، باختصار، مشكلة ترتبط بالتفكير الطوباوي. بما أن الهدف عقلاني (أو جميل أو مثالي)، قد يعتبر مؤيدوه أن جميع الوسائل التي تؤدي إلى بلوغه مسوَّغة. يستهدف فيبر في هذا السياق البلشفية. غير أن السياسيين الليبراليين الذين تورطوا في مهمات حضارية إمبريالية واستعمارية، والسياسيين النيوليبراليين بدءا من بينوتشي وصولا عند تاتشر عرضة لهذا الاتهام

لأنهم سوغوا عنف الدولة وأضرارا جانبية أخرى بهدف إقامة نظامهم المثالي.

يختزل الفاعلون السياسيون المؤيدون للأخلاقيات المطلقة الفعل في المبادئ، بينما يؤطره الفاعلون السياسيون المناصرون للغايات النهائية في ارتباط بالغايات أو النتائج النهائية. ويفصِل كل طرف منهما على نحو خطير الوسائل عن الغايات ولا يلتفتان إلى القوى الخاصة، والانتماء الحزبي، و«تراجيديا الفعل» التي تعد سمات دائمة في السياسة. وكلاهما يتهربان من المسؤولية التي تترتب عن أفعالهما وما تمثله عندهم من مبادئ واعتقادات. زيادة على ذلك، عندما يفرط هؤلاء الفاعلون في إضفاء الطابع الشخصي على البعد الإيتيقي، بهدف إرجاع أي شيء إلى دوافع أو أهداف شخصية، فإنهم يجردون أيضا الجانب العملي والنفعي للفعل من طابعه الشخصي- التحولات التي تطرأ على الفعل في العالم أو بسببه جراء تداخلهما-، وينظرون عوضا عن ذلك إلى المبدأ أو العقل بوصفهما عاملين محددين لمعنى الفعل. يتفادى هذا المنظور أيضا المسؤولية في السياسة بوصفها مجالا تنفصل فيه الأهداف عن النتائج بسهولة كبيرة، وتخفق فيه عادة النتائج النهائية للنشاط السياسي وبشكل كامل وحتمي في أن تفي بتحقيق هدفها الأصلي، بل وقد يصل بها الأمر إلى تحريفه.(78)

---

(78) Weber, "Politics as a Vocation," 78.

إن تأثير نيتشه واضح. في *جينيالوجيا الأخلاق* يكتب نيتشه قائلا: «إن سبب نشوء شيء ما و ... توظيفه وموضعه الفعليين في نسق الأهداف يختلفان اختلافا كبيرا؛ فكل ما

ومع ذلك يختم فيبر هذه المناقشة بقوله المشهور بأن من يجمع بين أخلاقيات القناعة وأخلاقيات المسؤولية هو من يمتلك بصدق حرفة السياسة.[79] فلا يمكن أن يكون البطل السياسي سوى فاعل «يشعر بكل جوارحه بحجم المسؤولية التي يتحملها تجاه النتائج التي تترتب عن فعله الخاص» ويحافظ على التزام ثابت بتحقيق هدف ما.[80] لذلك، كيف يجتمع هذان الإطاران الأخلاقيان معا في فرد واحد وفي مجموع الممارسات التي يقوم بها؟ إن اختيار فيبر لكلماته هنا له دلالته: النضج، والنباهة، وثبات الرجال، وضبط النفس، والقدرة على تحمل خيبات الأمل الماحقة دون تذمر أو سخرية، أو انسحاب.[81] إنها القدرة على المثابرة بعزم وعناد «بالرغم من كل شيء».[82] إنها مقاربة عقلانية متوازنة للسعي إلى

يوجد... يعاد تأويله مرارا لأجل تحقيق غايات جديدة، ويُستولى عليه، ويُحوَّل، ويعاد توجيهه من طرف قوة متفوقة عليه.» *Genealogy of Morals*, II.12, p. 77. إن إدراك ميكيافيلي لتحول الأفعال السياسية إلى سلسلة من النتائج غير المقصودة، أو إلى عكس مقاصد الفاعل يمكن أن يفهم بوصفه محددا لمحتوى كتابه *الأمير*.

(79) Weber, "Politics as a Vocation," 92.

(80) Weber, "Politics as a Vocation," 92.

(81)بعد انتقاده «للإثارة العقيمة، وللرومانسية المجردة من الهدف والتركيز» لدى الثوريين، يكتب فيبر قائلا: «إن الشغف لوحده لا يصنع من أي أحد سياسيا، ما لم تكن خدمة 'قضية' ما تفيد أيضا أن حس المسؤولية تجاه تلك القضية يصير المبدأ الأساسي الموجه للفعل. ولأجل ذلك (وهي السمة النفسية الرئيسة لدى السياسي)، يعد حس التناسب ضروريا، بوصفه قدرة تتيح لصور الواقع التأثير فيك مع حفاظك على هدوئك ورباطة جأشك. إن المطلوب، باختصار، هو اتخاذ مسافة من الناس والأشياء. إن «غياب المسافة»... هو إحدى الخطايا التي يرتكبها كل سياسي... لأن قلب المشكلة يكمن في كيفية تأليف وحدة بين الشغف المتقد وحس التناسب الذي تعوزه الحماسة في نفس الشخص الواحد... ولا يمكن تحقيق ذلك إلا باكتساب عادة الحفاظ على المسافة بكل الطرق الممكنة» Weber, "Politics as a Vocation," 77.

(82) Weber, "Politics as a Vocation," 94.

تحقيق أي مشروع سياسي.[83] وهي تحويل لمفهوم المسافة النفسية المركب بالانتقال من منظور راسخ في الطبقية الاجتماعية إلى «مسافة عن الذات والأشياء» تكون عامة. تبقي هذه المسافة أو الموضوعية الفرد مقيدا بالهدف وبمجال القوة الذي يسعى إلى تحقيقه فيه، وتثبط إغراء إرضاء الذات أو الآخرين من خلال مواقف أو توجهات غير ملائمة (نزيهة وروحية، ولكنها أيضا ممتعضة) أو طائشة.

وعلى الرغم من ذلك، هناك لحظات ينبغي أن تسود فيها القناعة الراسخة بسمو ورفعة، ويستحضر فيبر إعلان لوثر الحازم «هنا أقف، ولا يسعني فعل غير ذلك» للتعبير عن هذه الحالات. ومع ذلك، إن استعمال جملة لوثر الشهيرة قد يكون نوعا ما مضللا، ما دام الشغل الشاغل حتى في هذه اللحظات ليس هو البحث عن الفضيلة أو الخلاص في المجال السياسي، بل عن أمور أخرى كتفادي التآمر مع قوى الشر، أو استغلال الظروف لإحداث التغيير. في هذه الحالات، إنَّ تحمل مخاطر الآثار غير المرغوبة أو غير المتوقعة هو تحمل يستحق العناء.[84] لكن فيبر حريص على تمييز تحمل هذه المخاطر عن الظهور المفاجئ لمبدأ خالص، وعن التهرب من تحمل المسؤولية.

يثير مشاعري بقوة عندما يتقبل إنسان ناضج بالكامل، بغض النظر عن عمره، المسؤولية التي يتحملها تجاه النتائج المترتبة عن

(83) Weber, "Politics as a Vocation," 77.

(84) Weber, "Politics as a Vocation," 92.

أفعاله الخاصة، ويتصرف في انسجام مع أخلاقيات المسؤولية، ثم يصل إلى اللحظة التي يعلن فيها قائلا، «هنا أقف، ولا يسعني فعل غير ذلك»[85].

أين نحن إذن؟ يقودنا هذا إلى الشعور بالأهمية، والحكمة، والرغبة في تحمل المعاناة، بدلا من اعتناق مرح نيتشه وضحكهِ* بوصفهما وسيلتين لخوض غمار العدمية. إنه يؤدي بنا إلى البناء وليس الهدم، إلى تفادي الحقد والأنانية والثأر، وحتى حفظ ماء الوجه كما هو شائع- جميع الاندفاعات المغرية التي لا جدوى منها. والأهم من هذا هو أن أخلاقيات الفاعل السياسي ما بعد العدمي تستلزم أن يضحي بنفسه وليس الآخرين في سبيل تنزيل تصور ما، وتتصدى للاختزال العدمي الراسخ للحياة السياسية في المصلحة الشخصية، أو الامتيازات، أو السلطة، أو الأمن. ومع ذلك، تمثل أخلاقيات المسؤولية أيضا مسارًا للعبور خارج العدمية، بعرضها لطبيعة مفهوم «القيمة النهائية» في الحياة السياسية بطريقة عكسية، وبتبني مجموعة من الالتزامات الإبستمولوجية السياسية الصعبة لإعادة إحياء الحرية الإنسانية. دعونا نفحص هذه السياسة الإبستمولوجية عن كثب.

إن فهم القيم الخاصة بوصفها حقائق مطلقة يعد بالفعل انحيازًا إلى صنف من الأخلاقيات المطلقة التي ينتقدها فيبر. وخلافًا لذلك،

---

(85) Weber, "Politics as a Vocation," 92.

إن الإقرار بأن القيم السياسية لفرد ما هي اعتقادات صادقة، يؤيد المسافة النفسية التي يبحث عنها فيبر في الفعل المسؤول. ففي فضاء سياسي تتخلل الحزبية جميع مستوياته، يؤدي التأكيد المفارق على عرضية القيم النهائية التي يناضل لأجلها أي واحد إلى بناء مقاربة عقلانية متوازنة، تؤدي بدورها إلى بناء المسؤولية على أساس القناعة conviction. وبهذا المعنى، قد يبدو فيبر كما لو أنه يتبنى إحدى مناورات نيتشه المتميزة. اعتقد نيتشه أن رفض كل من التصورات المنفصلة عن العلم واستبداد الدين يعد أساسيا لإعادة بناء الموضوعية وللأسس التي تقوم عليها. وفقا لنيتشه، إن المنظورية perspectivism وحدها هي التي تتيح إمكانا للتأويل يتجاوز المؤوِّل، وإثبات الحالة الوجدانية هو الوحيد الذي يتيح الانعكاسية في المعرفة، وأن تعدد المنظورات والحالات الوجدانية فقط هو الذي يتيح تقديرا قريبا من الموضوعية. («هناك فقط منظور للفهم، وهناك فقط منظور للمعرفة، وكلما أتحنا لمزيد من الحالات الوجدانية التعبير عن نفسها بالنظر إلى موضوع واحد، وكلما حزنا المزيد من المنظورات المختلفة التي يمكننا أن نستعملها لفحص ذلك الموضوع، إلا وكان فهمنا وموضوعيَّتنا أشمل»[86]). وفقا لفيبر، لا يمكن تخليص القيمة من التبخيس العدمي لها، بمعية آثارها الهدامة التي تسببها الأداتية، والتتفيه، والتسييس المفرط للقيم، إلا بالالتفات إلى الخاصية اللاتأسيسية وغير القابلة للتسوية في القيم

(86) Nietzsche, *Genealogy of Morals,* III.12, p. 119.

النهائية.

وبخلاف ذلك، تستلزم أخلاقيات المسؤولية فعلا متجردا من أي اعتقاد واهم يقول بأن التاريخ والإنسانية ينطويان بصورة طبيعية أو ضرورية على مظهر أخلاقي، أو غائية أخلاقية، أو بأنها تنشأ عن قصد، أو عقل، أو دين خالص. تحدد الأخلاقيات مفهوم السياسة وتؤكده بوصفها مجالا للتعبير عن القيمة والدفاع عنها، وتحويلها بناء على سياق، بدلا من كونها مجالا لتحقيق القيم الخالصة. ترفض كل من أخلاقيات القناعة وأخلاقيات الغايات النهائية هذا المنظور. وهذا ما يجعل كل واحدة منهما مفتقدة إلى حس المسؤولية وغير ملائمة للسياسة.

وبقوله هذا، تستدعي أخلاقيات فيبر بشكل لا يصدق ما يراه روحًا إنسانية متلاشية في عصر تحكمه العقلنة. فعندما يلح على وعي فطن بالطبيعة العارضة لقناعاتنا، وبالعقبات التي تعيق تحقيقها، فإنه يطالب أيضا بأن نكرس أنفسنا لها بالكامل، وأن نجعل إنسانيتنا وحريتنا تقوم على هذا التكريس. وعلى هذا النحو فقط يستطيع التدافع على القيم أن يعالج الرغبة التي قوضتها العدمية وأن يجنبنا الانحطاط واللامسؤولية، والحاضرية (presentism) التي تثيرها الشروط العدمية. وللتَّوضيح، إن ممارسة الانعكاسية، والمسؤولية، وضبط النفس المتعالقة مع الشغف على هذا النحو لا صلة لها بالنسبية والذاتية أو تجاوز «معيقات المشاركة الوجدانية». إنها بالأحرى وعي إبستمولوجي- سياسي غير مسبوق حيث يدرك

الفرد أن قيمه تحوز سياقا خاصا بها، ومتحيزة زمنيا، وجغرافيا، وروحيا، وعلى الرغم من ذلك يبقى التزامه بها ثابتا بسبب هذا الوعي. إن هذا التأكيد ما بعد العدمي على الطبيعة المركبة للصراع السياسي- بدءًا من الطبيعة العارضة للارتباطات السياسية العاطفية، مرورا بورطة العنف الذي يمارسه أثناء السعي إلى تحقيق هذه القيم، والذي ينبغي له أن يتحمل مسؤوليته، وصولا إلى الحاجة إلى الصبر والتحمل عند كفاحه من أجل تحقيق هدفه- هو ما يعبر عنه فيبر باصطلاحات حددها في «الرصانة» و«النضج» و«البسالة» و«المروءة» .

إن الوعي الذي يحيط باللاعقلانية الأخلاقية للحياة السياسية التي تشكلها تراجيديا الفعل، وبالعقلانيات التي تتحكم في الحاضر، وبعدم قابلية الحسم الإبستمولوجي في قيم عصر علماني، يلقي الضوء أيضا وبصورة فريدة على المعضلات، والفرص، والأخطار السياسية. تصير قراءة هذه المظاهر مختلفة بالنسبة إلى الأكاديميين عندما يحصل هناك عدول عن قياسها باستعمال أصناف المنطق الأخلاقي أو السلوكي المفصولة عن السياقات التاريخية والارتباطات العارضة، وبالنسبة إلى الفاعلين السياسيين عندما تفصل هذه المظاهر عن المانوية الأخلاقية (moral Manicheanism) والسياسة القائمة على السلطة الخالصة.(87) تهدف الأخلاقيات التي يحددها فيبر من ناحية إلى استعادة الحياة

(87) See Satkunanandan, "Max Weber and the Ethos of Politics," 174.

السياسية من الرزوح تحت سيطرة صور عبادة الشخصية والكراهية، ومن براثن البقرطة والعقلنة من ناحية أخرى. ويخلق هذا بدوره إمكانية لتقديم مقترحات أو القيام بمجهودات في المستقبل لا ترجع في الأصل إلى مشاعر السخط والاستياء من الماضي أو الحاضر، أو إلى أي ارتباط عدمي بما هو شخصي أو لحظي.

أخيرا، تسعى مقاربة التجديد السياسي عند فيبر إلى استعادة الحرية من الآثار الهدامة للعقلانية، ومن السقوط العدمي في حرية غير مسؤولة لا حدود لها، أو صراع يهدد النسيج الاجتماعي. ولفهم هذا الاسترداد، يتعين أن نقر بأن فيبر يعرض في كتاباته معنيين وتطبيقين مختلفتين للحرية. في دراساته لنماذج العلوم الاجتماعية التي تهتم بتصنيف الفعل والعقلانية، يحدد فيبر الحرية في إطار ليبرالي ميكانيكي نسبيا بوصفها غيابا للقيود المفروضة على الفعل. تتمتع العقلانية الأداتية، مثلا، بحرية أكبر لأنها غير مقيدة بأي إلزام أخلاقي. وفي سياقات أخرى يلح فيبر على أن منبع الحرية الحقيقية هي «الروح» التي تقتضي عيش حياة تتماشى مع اختياراتنا واعتقاداتنا، وهي تعني، باختصار، التحكم، ويعني بذلك تحكما نحقق به فهما عميقا لذواتنا. يفضي هذا المعنى الثاني بفيبر إلى ربط «Beruf» (الدعوة أو الحرفة) بمفهوم الحرية، بل وموضعتها في قلب هذا المفهوم. فعندما نعيش بناء على ما نعي أننا نمنحه قيمة أو نشعر بأننا مدعوون إليه، فإننا نعيش بطريقة ما أحرارا حتى عندما نكون محاطين بظروف صعبة أو قاهرة.

إن العدمية التي تُستمدُّ في جانب منها من القوة المتصاعدة للنمط الآلي للحرية ومن مجالها (التخلص من السلطة الدينية والتقليدية، ونشوء العقلانية الأداتية) تهدد بالقضاء على الصورة المفعمة بالعاطفة للحرية. هكذا يصف فيبر الرأسمالية، والتصنيع، والبيروقراطية، ونزع السحر عن العالم، والعقلنة المنتشرة التي تبلغ ذروتها مجتمعة في «قفص حديدي» يحاصرنا جميعا في فترة الحداثة.[88] لا علاقة لمفهوم «القفص الحديدي» بسلطة الاعتقال التي تمارسها الدولة، بل له علاقة باستنزاف الحرية. ولا يكمن تفرده فقط في نشوئه من خلال صور العقلانية أو انتشاره الواسع، بل إنه ينشأ عن الآثار الطارئة لصنف واحد من الحرية، الذي ينتهي بتقويض صنف آخر منها. ومثلما تقيد العقلنة الحرية الباطنية باستعمالها للحسابات الأداتية، فكذلك تفعل الأنساق الاقتصادية والإدارية التي تنشأ بوصفها مجرد «وسائل» تحول الحرية في نهاية المطاف إلى نقيضها. إن صنفي الحرية هذين، زيادة عن كونهما مختلفين، يلغيان حضور بعضهما البعض. إن الحرية بوصفها قوة غير

(88) «إن كل آلة جامدة هي ذهن مشيأٌ. وهذا فقط ما يمنحها القوة لإلزام الناس بخدمتها وللسيطرة على حياتهم العملية اليومية بشكل كامل كما هي الحال بالفعل في المصنع. إن الذكاء المشيأ هو أيضا تلك الآلة المفعمة بالنشاط. أي التنظيم البيروقراطي، بتخصصها في المهارات المكتسبة عن طريق التدريب، وشعبتها في القضاء، وقواعدها وعلاقاتها التراتبية في السلطة. وبمعية الآلة الجامدة، يعمل هذا النسق على تشكيل بنية من الاستعباد التي قد يجد الناس أنفسهم مدفوعين قسرا للإقامة فيها عاجزين مثل فلاحي مصر القديمة.»
Max Weber, "Bureaucracy and the Naiveté of the Literati," in Weber, *Economy and Society,* vol. 2, ed. G. Roth and C. Wittich (Berkeley: University of California Press, 1978), 1402.

مقيدة تبني نظاما نكون فيه، ذاتيا وعمليا، مجردين على نحو كبير من الحرية التي تمكننا من تشكيل أنفسنا والعالم في ارتباط بالقيم التي نختارها، أو على الأقل التي نؤكدها فرادى أو مجتمعين.

يتحدد العرض الجريء الذي تقدم به فيبر في محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» في تكليف الزعيم أو القائد بمقاومة القوى التي تقوض الحرية الباطنية وعقلانية القيمة، وبالتالي استرداد السياسة من قوى العدمية التي ابتليت بها في زمانه ومازالت تجتاحها في زماننا نحن. وبتأكيده على أهمية الكفاح لأجل تحقيق رؤية سياسية يتم تبنيها بشغف وتعد أساسية بالنسبة إلى حرفة السياسة، وبموضعته لهذه الحرفة في طليعة المقاومة التي تتصدى لعقلنتها وانحطاطها العدمي، يسند فيبر للسياسي دورا يتجاوز الزعامة المسؤولة في جانبها العملي. بل إن هذا الزعيم السياسي يحمل أمل تخليص الإنسانية نفسها من القوى التي تقوض الإنسانية بواسطتها قدرتها على خلق عوالم تتماشى مع القيم التي يتم اختيارها بوعي. علاوة على ذلك، يخلص هذا الزعيم الحرية من طمس الأجهزة الرأسمالية والبنى الإدارية (التي تسمى بالعدمية المؤسسية) لها، ومن أفعال السلطة النرجسية المجردة من الحس الإنساني (التي تسمى العدمية الشخصية). وبما أن السياسة المعاصرة مشبعة بكليهما، وبما أن الخوف الأكبر الذي عبر عنه كان هو الأجهزة الكبرى للسيطرة التي كان يديرها ديماغوجيون متغطرسون ونرجسيون، فإن السياسة تبقى ذلك المجال الذي نواجه فيه هذين التحديين.

إن محاضرة فيبر حول السياسة بوصفها حرفة هي نفسها وسيلة لخوض غمار العدمية بإعادة بناء المعنى التقليدي للسياسة- الصراع حول «مَن نحن» و«ماذا يتعين أن نفعل» - مع القبول بالطبيعة المعاصرة الواضحة لهذا الصراع.[89] إنها تسعى إلى ترميم السياسة بعد موت الإله، ليس بتطهيرها من قوى الشر التي تحيط بها، بل بإعادة تأكيدها على أهمية القيم في الحياة السياسية بوصفها وسيلة لمواجهة معضلات الحداثة في تلك اللحظة. وعلى هذا النحو، يجعل فيبر من السياسة مجالا يستطيع الناس أن يصيروا فيه من جديد مسؤولين ليس فقط عن أفعالهم الخاصة، بل أيضا عن العالم عندما تتعرض هذه القدرة الترميمية للخطر بسبب القوى التي تنتجها الإنسانية والتي قد خرجت عن سيطرتنا من ناحية - مثل رأس المال، والتقنية، والعنف السياسي المنظم- وفي اختزال العدمية للسياسة في لعبة ممارسة السلطة الفجة من ناحية أخرى. يتصدى فيبر لهذين التهديدين حتى تسترد الأهداف والمسؤولية أدوارها في تشكيل العالم. هل هناك ما هو أهم من هذا في حاضرنا، حيث لا تقف القوى، التي أطلقنا لها العنان وعجزنا عن لجمها، عند التهديد بالسيطرة علينا، بل تتوعدنا بمحو وجودنا ووجود جميع أشكال الحياة على هذه الأرض؟

وإذا كان فيبر حذرا من الفرص المحدودة لنجاح هذا المشروع، فقد كان يعتقد أن الترياق المضاد لليأس ليس هو الأمل، بل العزم-

(89) Eden, *Political Leadership,* 186.

العاطفي، والروحي، والعملي. لا تقتصر الحاجة إلى هذه السمة على الزعماء السياسيين وحدهم، بل تشمل أيضا كل من يبالي بالحياة السياسية، والعدالة، والمستقبل. فأغلبنا، كما يقول فيبر، «سياسيون ظرفيون»، أي مهتمون بالسياسة أو تحفزنا المشاركة في بعض السجالات أو الحملات السياسية. لقد توجه فيبر بعباراته الأخيرة إلى كل واحد «ليس زعيما أو بطلا» لكن ينبغي له أن «يتسلح بروح قوية لا يثنيها إخفاقه في تحقيق آماله». فقط من لديهم «العزم لن ينهاروا إذا أثبت العالم... أَنَّهُ على درجة كبيرة من الغباء أو الدناءة بحيث لا يقبل بما يريدون منحه له»، والذين مازال بإمكانهم قول «مع ذلك! رغم كل شيء» - هم وحدهم من يصلحون للسياسة.[90] إن الموقف المعبر عنه بقول «مع ذلك» أو «رغم كل شيء» لا يقفز على المعضلة العدمية، بل يقاوم تأثيرها المدمر للعالم بالجدية والاستقامة والتحمل والتدبير المسؤول للسلطة سعيا لتحقيق هدف بإمكانه تغيير العالم. صرنا بهذا الموقف على طرف نقيض تماما مع منظور نيتشه.

فيبر مؤيدا لليسار

تعد الزعامة الكاريزماتية مصدرا للقلق، أو النفور بالنسبة إلى المفكرين اليساريين والليبراليين. هناك قلق ديمقراطي جذري يعتبر الزعامة تشكيلا هرميا محتوما. وهناك قلق ديمقراطي ليبرالي من

(90) Weber, "Politics as a Vocation," 93–94.

اغتصابها المحتمل للتمثيلية. وهناك كذلك القلق الهابرماسي حول استسلام العقل بوصفه مصدر الفاعلية والتعبئة السياسيين. وهناك قلق مشترك بشكل واسع من أخطار الاستبداد التي تنذر بها الزعامة الكاريزماتية، بما في ذلك الخوف من أن تولد محاباة هذه الزعامة سلطةً لا تخضع للرقابة أو أن تشرعنها. وكنتيجة لذلك، يدين العديد من التقدميين ليس فقط اللينينية في بدايتها الأولى، ولكن أيضا شعبوية اليسار المعاصر. ويدافع آخرون عن وجود حركات اجتماعية من دون زعيم، أو ثورات ليست لديها مطالب واضحة أو موحدة، أو [مقاربات تنظيمية مثل] الأفقية horizontalism والسوسيوقراطية sociocracy .[91]

يمكن أن تؤخذ المخاوف المرتبطة بالزعماء الكاريزماتيين على محمل الجد، لكن ذلك لا يعني السماح لهم بالحكم. إن الكاريزما، بقدرتها على التحريض وإثارة المشاعر، والتحفيز والتعبئة، والقيادة بطرق تخرج عن المألوف، تعد بلا ريب عنصرا يفرض نفسه في الحياة السياسية. إذا كان اليسار يمتنع عن تسخير الكاريزما، في الوقت الذي يستغلها اليمين لصالحه، فإنه يضمن هزيمته بسبب التزامه بروح الجماعة السياسية الفاضلة التي يحذر منها فيبر. يبدو بشكل خاص أحيانا أن الوسطيين الليبراليين مستعدون لمواجهة كوارث العالم وهم يتمسكون بالمؤسسات، والشكلية الإدارية

(91) لكن البعض ممن يربطون الزعامة الكاريزماتية بالنزعة التسلطية ربما يقبلون بالتكنوقراطية بديلا عن الديمقراطية، وهو ما يعني اليوم ألا يحكمك فقط الاقتصاديون، والسلوكيون، والبيروقراطيون، ولكن أيضا الخوارزميات.

proceduralism، والعقل، والكياسة civility. ومع ذلك يتعدى الخطأ هنا كونه خطأ براغماتيا أو استراتيجيا. إنَّ رفض الزعامة الكاريزماتية يعكس سوء فهم كل من السياسة والعقل بوصفه محاولة لصون الوعد الفريد بالحرية الذي تقطعه الحداثة على نفسها والذي يستند إلى الجمع بينهما. يؤدي هذا الرفض إلى تصور السجالات السياسية خالية من أي سلطة خطابية، ولا تسود إلا لاستنادها إلى وجاهتها الإثباتية والمنطقية. ويؤدي هذا الرفض أيضا إلى تصور العقل بطريقة مجردة ومستقلة، منفصلة عن السياقات الثقافية وأشكال العقلانية، وبلغة خطابها الخاصة. وفوق كل هذا، يؤدي هذا الرفض إلى تصور العقل بوصفه مستقلا عن الرغبة، إن لم يكن يعارضها.

يترتب عن أشكال سوء الفهم هاته نتائج مهمة. ومن بين المضاعفات التي تنتج عن ذلك إسناد العقلانية حصرا لليسار، ووسم اليمين إجحافا بصفة الوعي الخاطئ أو سوء النية- الجشع، أو نزعة التفوق، أو التلهف إلى السلطة الذي يتنكر في صورتي العدالة والصلاح. يولد سوء الفهم هذا ازدراء فكريا يشعر به المنتسبون إلى اليمين، ويستثمره سياسيو جناح اليمين لصالحهم. وتسند أشكال سوء الفهم هذه أيضا الصدق الأخلاقي إلى مجموعة قيم اليسار، وتنفي صفة الحماسة، والضغينة، والسعي وراء السلطة، والعرضية التاريخية عن هذه المجموعة. علاوة على ذلك، يتفادى اليسار، بخلطه بين المجال السياسي والسجال الأكاديمي، تطوير

قناعاته المتقدة لبناء مستقبل واعد وفهم عميق يقوض بهما عواطف خصومه أو يستثمرها، أو يستوعبها. بدل ذلك، يقتصر العقلانيون اليساريون على الانتقاد العلني للنفاق والكذب الذي تنطوي عليهما مشاريع الجناح اليميني، أو فضح موارد أو شبكات تمويلها. وبالنظر إلى تبني اليسار لموقف دفاعي باستمرار، يرتبك اليسار بسبب إخفاقاته وضعف التأييد الذي يواجهه، في الوقت الذي يبدي خصومه نزوعا صريحا غير مسبوق نحو الشمولية والفاشية.

ليس المقصود هنا أن اليسار ينبغي له أن ينخرط في أفعال لا أخلاقية، أي أن يستبدل الحجة العقلية بالعاطفة، والصدق بالكذب، والعلم بسرديات مؤاتية. أو بعبارة أخرى، العمل وفق لاعقلانية سوريل والإيمان الأعمى بالأساطير. كل هذا سيعمق من معضلة العدمية وسيعجِّل بنهاية الديمقراطية، وسيفوت فرصة التصدي للثنائيات التي تسهم في معضلات الحاضر. إن المقصود بالأحرى هو أننا نحتاج إلى التخلي عن تصورنا الذي نحمله عن التعارض بين العقل والرغبة في المجال السياسي، وكذلك عن اعتقاداتنا الواهمة بأن العقل يستطيع دائما دحر الرغبة في السياسة، أو أن التعديلات المفاهيمية الفلسفية أو العلوم تقدم حلولا للمشكلات السياسية. وفوق كل هذا نحتاج إلى التخلي عن فكرة أن الوعي المغلوط وحده كفيل بمنع الجماهير من معرفة مصالحهم الحقيقية في المساواة والتحرر، ومن السعي إلى تحقيقها. عادة، لا تريد الجماهير ذلك؛ فرغباتها مختلفة، والتحدي المطروح هو تطويع هذه

الرغبات وإعادة توجيهها. ليست الرغبة طيعة بشكل غير محدود، لكن إذا فهمت وأشبعت بالاعتراف، عندها يمكن تشكيلها وإعادة توجيهها.

إن المهمة الملقاة على عاتقنا الآن هي تجسيد الانشغال بالرغبة في التفكير السياسي، والفعل، والإقناع في جميع الظروف والحالات، سواء عند تحليلنا لقضايا من قبيل إنكار وجود ظاهرة اسمها تغير مناخي climate denialism، ومعارضة الإجهاض أو لتشكيل حملة بهدف تجاوز الأقطاب السياسية المنيعة أمام التغيير. كيف يمكننا تعبئة الرغبة في عيش حياة مريحة لبناء نظام يدعم حياة الكائنات الإنسانية وغير الإنسانية بدلا من أن يعرضها للخطر؟ كيف يمكننا أن نوجه العناية بالحياة البريئة لحماية الحياة الهشة بجميع أصنافها؟ كيف يمكننا أن نعبئ الرغبة الشديدة في الشعور بالاحترام والانتماء لمقاومة قوى الاستعباد، والمهانة، والإذلال؟

إن التركيز على الرغبة السياسية تجعلنا قريبين من المدار الذي يدور فيه مفكرو اليسار- سوريل Sorel، وغرامشي، وستيوارت هول، وغيرهم- الذين سعوا إلى اعتبار الثقافة والإحساس بديلين عن الاقتصادية economism والتلقائية، والعقل ومكملين لهم بوصفهما مصدرين لتوليد الحماس الثوري لدى الجماهير. لا يتماشى هذا النوع من التفكير مع جوهر ما يعتقد به فيبر، لاسيما في ارتباط بمنظور سوريل الذي يقدس العنف ويعطي الأولوية للأسطورة على حساب العقل. ومع ذلك، ربما تكون الصياغة الفريدة لمفهوم

الزعامة الكاريزماتية هي ما نحتاجه بالتحديد لجعل هذا التقليد على درجة أكبر من المسؤولية وأكثر التزاما وأوثق صلة بالحاضر. يُصِرُّ فيبر على أن الزعامة الكاريزماتية السياسية وحدها هي القادرة على إعادة السحر إلى المجال السياسي بتعطيلها لآلياته في السيطرة عن طريق تصورات وأنماط من الفعل يمكنها استعادة القدرة الإنسانية على التأثير في العالم. وبرسوخ الزعامة الكاريزماتية في مفهومي الرقابة على الذات والضبط، ولصلتها الوثقى بالمسؤولية العميقة تجاه سلسلة الأحداث في المجال السياسي الفريد، فإنها تقود إلى، وتشكل، طريقة لربط التوهج الثوري لأجل عالم مختلف باهتمام أصيل بالحياة في هذا العالم. وعوضا عن التصرف بناء على ما تمليه الاندفاعات والغريزة، ناهيك عن الغرور والإيمان بأن قضية ما تحوز الأولوية أو الأفضلية الأخلاقية على غيرها من القضايا، يشوش الزعيم الكاريزماتي البطل على الوضع القائم بإظهار الاحترام الكبير لسلط هذا الوضع ومرجعياته، مع السعي بإصرار إلى إيجاد بدائل جديدة له. تقدم هذه الشخصية أملا ثوريا لا يتماشى مع التصورات الأسطورية أو الطوباوية وهي تفكك القيود التي يفرضها الواقع الحاضر.

وفقا لفيبر، تنطوي الزعامة الرصينة والمسؤولة والغرضية في المجال السياسي المعاصر على إدراك عميق للصعوبة الاستثنائية الكامنة في مقاومة، وحتى تجاوز، أشكال العقلانية والعقلنة التي تحكم، بهدف الإتيان ببدائل؛ ويرافق ذلك إقرارها بأن العنف هو

الوسيلة النهائية، والسلطة هي العملة الوحيدة في المجال السياسي؛ وإدراكها بأن الطبيعة العارضة للهدف إلى جانب المسافة التي تفصل النوايا عن النتائج في الواقع؛ والالتزام المسؤول ببعث الرغبة الإنسانية في شيء يمكن الإيمان به وعقد الأمل على تحقيقه. وتعد هذه العناصر أساسية أيضا في سياسة اليسار، ويكتسي التوليف بينها أهمية لاسيما في التصدي للقدرية fatalism ومقاومة العدمية. في الوقت الذي نركز فيه على تجسيد هذه التوليفة في مفهوم الزعامة، من المهم الإشارة إلى أن هذا التجسيد يمكن أن يكون شكلا من أشكال التربية السياسية. إنَّ الزعماء أو القادة الذين يتملكهم الشغف ويتمتعون بحس المسؤولية، وبعد النظر، والحذر، والملهمين لغيرهم والرصينين يعطون دروسًا قيمة للحركات الاجتماعية والمواطنين قاطبة على حد سواء.

وبقول هذا، لا يمكن إسناد التربية السياسية، واقترانها بالرغبة، إلى المجال السياسي وحده. فإذا كان فيبر محقا بقوله إن المنظورات السياسية، أي «القيم»، تنشأ عن صور التعلق العاطفي والرغبات المركبة، وإذا كانت العدمية تمثل أزمة رغبة، أي طريقا مسدودا يحول دون حب هذه الحياة وهذا العالم، فإن التربية على الإحساس أو التعلق العاطفي يصير آنذاك أساسيا لبناء مستقبل ما بعد عدمي. تغدو هذه التربية غاية في الأهمية عندما نتخلى عن اعتقادنا الواهم بأن قيمنا صادقة وأن قيم خصومنا كاذبة، وبأن القيم السياسية هي فقط حقائق تكتشف وليست تشريعات، وأنه سيعمل إما العقل أو

المصالح بصورة تلقائية على تشكيل جبهة لصد إغراءات النزعة التسلطية، والخداع، والأشكال المرفوضة لتفوق النوع، أو العرق، أو الجنس، أو التأويلات العدمية لمفهوم الحرية (عدمية لأنها لا تخدم الحياة بأي معنى). إن موقف فيبر، الذي يعدُّ ردًّا حاسما على الليبراليين والماركسيين، يذكرنا بأن الحجة العقلية والدليل القاطع وحدهما لا يكفيان لمواجهة المخاوف، وخيبات الأمل، وأشكال التعلق العاطفي، والرغبات الملحة التي يشعر بها عامة الناس. عوضا عن ذلك، تتحدد مهمة من كلفوا بإقامة نظام أكثر عدلا واستدامة في استثارة الرغبة في هذا النظام ورعايتها، وفي تجسيد تلك الرغبة في رؤية للعالم وفي مشروع سياسيٍّ عملي.(92)

وهكذا بدأنا بمعالجة مشكلة العدمية والفعل السياسي، وختمنا بمشكلة التربية. وتقودنا مشكلة التربية هذه إلى محاضرة فيبر الأخرى حول المعرفة بوصفها حرفة. وكما سيوضح الفصل التالي، بالنسبة إلى فيبر، إنَّ تحليل القيم وما يستتبعه من نتائج بأسلوب فكري رزين، والذي يعد إحدى المهام التي يسندها إلى الباحثين الأكاديميين في العلوم الاجتماعية، هو طريقة لصد الاختزال العدمي للمعرفة في أهداف أداتية خالصة محورها السلطة. ولكي نتأكد من ذلك، قد تبدو مقاربة فيبر لهذا المشروع غريبة وغير مرضية تماما-

---

(92) يمكن أن يحدث تأجيج الرغبة في المرافق والمؤسسات اليومية. ومن المهم الإشارة إلى أن اليمين قد انخرط بشكل نشط لعقود في المدارس، والكنائس، والجمعيات المدنية، والأنشطة الترفيهية، و، بطبيعة الحال، في وسائل الإعلام. أما اليسار، وعلى الرغم مما قدمه غرامشي، وستيوارت هال، وبرنامج مدرسة فرانكفورت المبكرة، فقد أهمل بشكل كبير الإنتاج الثقافي، ونشر قيمه على هذا النحو.

بعد أن حدد القيم في مجموعات من التعالقات العاطفية، سيُصِرُّ على إخضاعها لفحص عقلاني متجرد من العاطفة. وعلى الرغم من ذلك، ستقدم أفكاره منظورا قيما للسجالات المعاصرة حول مشكلة القيم في الصفوف الدراسية، والمناهج، والبيداغوجيا. وستساعدنا أيضا على التفكير في المعضلات الكبرى التي يتخبط فيها التعليم العالي. فإذا كانت العدمية تبخس جميع القيم، بما في ذلك قيمة الحقيقة، والوقائعية، والتاريخ، والنظرية، فإن تأثيرها يتناغم مع التبخيس النيوليبرالي لجميع أنماط التفكير أو المعرفة التي لا تتلاءم مع تطوير رأس المال. ويتشعب هذا التأثير أيضا بفعل قوى وسائل الإعلام غير المسؤولة وهجمات الجناح اليميني على الفكرانية intellectualism. وعندما تقوض هذه القوى مجتمعةً المساواة، وإمكانية الاستفادة من التعليم وأهميته بعيدا عن حصره في تطوير المهارات، فإن ذلك ينتج عنه جماعات سكانية غير ديمقراطية يمكن التلاعب بها، قد كانت هي سبب الأزمة التي تعرفها الديمقراطية نفسها.

رد فيبر على الأزمات التي عرفتها السياسة الأوروبية في عصره بتخليه عن فكرة الديمقراطية الجوهرية وعقده أملا (متواضعا) على الزعامة الكاريزماتية المسؤولة، حيث تمثل المسؤولية «سياسة العقل»، وتؤكد الكاريزما على قدرة لا يمكن وصفها على توجيه الروح وصور الشغف. بيد أن الفارق الذي لا يمكن رتقه الذي أقامه بين المجالين الأكاديمي والسياسي، وبين الحقيقة والسلطة زاد

من احتمالات حدوث شيء آخر. لقد فتح المجال لنشأة ديماغوجيين غير مسؤولين يستغلون بفضاضة المخاوف الشعبية، والمعاناة، ونزعة التفوق الجريحة، وتحميل الخطايا للآخرين دون أن يتقيدوا بالمسؤولية التي تمليها عليهم الوقائع، والقانون، والدساتير، والمؤسسات، والإنسانية، والنظم البيئية. وبحصر فيبر للأكاديمية في العقل العلمي، والسياسة في الشغف الذي يتغذى على المسؤولية، يكون بذلك قد أيَّد الفصل بين هذين المجالين لتحصين كل منهما من تدخل الآخر. وكما سنلاحظ لاحقا، أدت أشكال الفصل إلى التقليص من احتمالات التربية على الديمقراطية، بما في ذلك التربية على الرغبة التي يمكن أن تتصدى لما كان يخشاه بشدة: جماهير مهتاجة يعبئها ديماغوجيون غير مسؤولين يتحكمون في دواليب الدولة وأجهزة اقتصادية واسعة، ويعلنون تأييدهم للحرب.[93] وفي الوقت نفسه، إن إصرار فيبر على إقامة حدود فاصلة بين هذين المجالين قد حدَّ من الإسهامات الأكاديمية في مشروع إصلاح الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.[94] في محاضرته «العلم بوصفه حرفة»، التي سنلتفت إليها للتو، قاوم فيبر بشراسة بغرض

---

(93) كان هذا هو «الليل القطبي من الظلام والقسوة الباردين» الذي تنبأ فيبر بحدوثه في المستقبل القريب، والذي تحقق سريعا في صورة فاشية، واشتراكية قومية، وحرب. Weber, "Politics as a Vocation," 93.

(94) أكد فيبر بشكل صريح على أن تقليد الجامعة الألمانية يرتبط ب «روح أرستقراطية،» بدلا من روح ديمقراطية. أنظر .Weber, "Science as a Vocation," 6

حماية إنتاج المعرفة ونشرها من التسييس العدمي. وبسبب موقفه الكفاحي العنيف، يكون فيبر قد قلص من إمكان إسهامهما في تغيير العالم، أو في الحد من التحديات التي يواجهها.

ثانيا

المعرفة

إن التأكيد الإيجابي على قيمة العلم شرط سابق عن جميع أنماط التعليم

- ماكس فيبر

يخلو العلم من المعنى لأنه لا يجيب عن الأسئلة الوحيدة التي تكتسي أهمية بالنسبة إلينا: «ما الذي ينبغي علينا فعله؟ وكيف ينبغي لنا أن نعيش؟»

- اقتباس ماكس فيبر من تولستوي

إن سياسة فيبر الأنطولوجية التي تعج بالصراعات الغاضبة بين الآلهة والشياطين، والمتضاربة في فكر من يعد مؤسسا للدراسة العلمية للمجتمع والسياسة، تنشأ عن وعي محبط يعلم أن أعمق قيمه راسخة في الدين، بينما يستمد التزاماته المهنية من خصمه.

- شلدون سانفورد وولن

العدمية في الفضاء الأكاديمي

تناول الفصل السابق المجهودات التي قام بها فيبر للتصدي لآثار العدمية على السياسة، وتحديدا من خلال الفعل السياسي الذي

يحركه السعي المسؤول وغير الأناني لخدمة قضية مشتركة. سنلتفت الآن إلى محاولات فيبر في محاضرته «العلم بوصفه حرفة» مقاومة آثار العدمية على المعرفة والفضاء الأكاديمي، بوصفها مشروعا يعول على علمنة التعلم الأكاديمي وعلى عدم تسييسه، وهو كذلك مشروع يخفق في نهاية المطاف لاستحالة تحقيق هذه الأصولية، ولكونه يضاعف من حدة بعض تداعيات العدمية على الرغم من مقاومته لبعضها الآخر. ومع ذلك، يقدم كل من المجهود المبذول والإخفاق المصاحب له رؤى قيمة للتفكير المعاصر في سياسة المعرفة المتبعة في السياق ما بعد العدمي، وسنعتمده كمنظور لدراسة محاضرة فيبر.

تشتهر محاضرة «المعرفة بوصفها حرفة» بتمييزها الصارم بين الوقائع والقيم، وبذمِّ أولئك الذين يخلطون بينها، ومن يقدمون القيم جهارا، ولاسيما تجسيدها، لكن ليس حصرا، في المواقف أو البرامج السياسية داخل الأوساط الأكاديمية. وبعيدا عن استبعاد القيم من التفكير الأكاديمي، يدافع فيبر عن تحليلها بوصفها مجموعات أخلاقية وسياسية لها تبعاتها على الفعل والسلطة وممارسة العنف. ويكتسي هذا الموضوع أهمية بارزة في محاضرته، حيث إنه في الجزء المتعلق ببيداغوجيا الأخلاق، لا يلتفت فيبر إلى السؤال المتعلق بكيفية تدريس الوقائع (نظرا للصعوبات التي تعترض ذلك بالنظر إلى التزاماته الهرمينوطيقية)، بل لكيفية معالجة القيم في حجرة الدرس. وإذا كان ما يسميه «قيما نهائية» تتجاوز الاعتقادات

الشخصية التي تؤثر في الحيوات الفردية لتحدد الأهداف السياسية التي تتشابك مع «قوى الشر» في المجال السياسي، فإنه ينبغي تسريحها من سجن القلاع الأخلاقية واللاهوتية التي توصد أبوابها عليها في الداخل، وتخضع مقدماتها، و«بنيتها الباطنية»، ونتائجها لتحليل صارم.(95)

يختلف هذا الموقف جذريا عن المجهودات المعاصرة التي تحث المدرسين على «الموازنة» بين التصورات السياسية المتعارضة أو تركها تتنافس فيما بينها على الاستقطاب، أو الترويج لبعض أنساق القيمة السياسية بوصفها صحيحة أخلاقيا، واستنكار غيرها بوصفها باطلة أخلاقيا. تغفل هذه المقاربات فحص القيم بجعلها تتجاوز ما ينبغي إدراكه في حجرات الدرس، إمَّا لأنها مقدسة، وبالتالي يحظر المساس بها، أو لأنها مجرد آراء لا تحوز أهمية، أو لأنها غير موضوعية وهذا ما يجعلها غير علمية. تتناول كل من هذه المقاربات القيم بوصفها موضوعات ينبغي أن تلاقي احتراما لا اعتراض عليه، أو أن تقابل بالسخرية بدل إخضاعها لتحليل دقيق وموضوعي.

بخلاف ذلك، يتناول فيبر القيم بوصفها تنشأ عن رؤى للعالم Weltanschauungs ليست لها أصول عقلانية أو أسس نهائية، ومع ذلك فهو يعتقد بأنها لازالت قابلة للتحليل. علاوة على ذلك، إن معالجة القيم بطريقة أكاديمية يكتسي أهمية كبرى في عصر علمي

(95) Max Weber, "Science as a Vocation," in *The Vocation Lectures,* ed. D. Owen and T. Strong, trans. R. Livingstone (Indianapolis: Hackett, 2004), 20.

يهدد مفهوم القيمة ويشوش على فهمنا لوضعها. إن المفارقة التي تكمن في لاعقلانية أصل ومضمون ولعبة القيمة من جهة، والتفاني في تحليلها تحليلا عقلانيا من جهة أخرى تنم عن بعد حيوي يجعل منظوره مفيدا لنا اليوم. يناشد فيبر الأكاديميين، لتوظيف قدرتهم كمدرسين على وجه التحديد وليس حصرا في مقاربة الترابط المتسلسل للقيم المعاصرة «بطريقة علمية» على الرغم من أن أصول نشأة القيم والإطار الأساسي الذي يحتدم فيه الصراع حولها يتحددان على مستوى مجالين غير علميين- الإحساس أو التعلق بالنسبة إلى المجال الأول والسياسة بالنسبة إلى المجال الثاني. يراهن فيبر على الالتزام الأكاديمي الهادئ وغير المتحيز بتفكيك القيم الذي يمكن أن يؤدي وظيفة وسيط يقظ بين هذين المجالين، أي بين المجال الذاتي والمجال السياسي. ولا تكون هذه الوساطة ممكنة إلا إذا بقيا خارج حدود المجال الأكاديمي. وتدخل هذه المفارقة في سياق المعرفة والمشهد التعليمي الذي يسعى فيبر إلى التنظير لهما وتعيين حدودهما وصونهما.

يؤكد فيبر على أن الفلاسفة ورجال الدين والعلماء الاجتماعيين لا يمكنهم حل النزاع القائم حول القيم ولا ينبغي لهم فعل ذلك. إن مسؤولية الأكاديمي والمطلب الأخلاقي الذي ينبغي أن يسعى المدرسون إلى تحقيقه هو معالجة القيم بوصفها موضوعات للتحليل والنقد- أي فحصها بواسطة التحليل التاريخي والمقارن، أو من خلال الأخذ بعين الاعتبار منطقها والنتائج المترتبة عنها، لكن ليس

بوصفها قضايا للحقيقة. بإمكاننا كأساتذة أن نسلط الضوء على الرهانات والمضاعفات والمسارات الممكنة التي تطرحها القيم في السياقات العملية؛ وبإمكاننا أن نساعد الطلبة على توضيح معنى المواقف التي يحملونها والنتائج المترتبة عنها. بيد أننا لا نستطيع أن نفصل القيم الصحيحة عن غيرها. بناء على ذلك، إن توفير مجال هادئ وملائم للتفكير لتحليل التعارض القائم بين القيم - في عصر موسوم بانتشار القيم واجتثاثها من أصلها، عصر علماني ماض في عدميته دون توقف- يمكن أن يجعل تعارضها أكثر دلالة وأقل حدة. ويحمل هذا العمل الأكاديمي والبيداغوجي بين طيَّاتِهِ - بصورة ضمنية- إمكانا لإغناء الفضاء العام، ولتلميع نزاهة الأكاديمية وسمعتها في الوقت نفسه. وفي الوقت الذي يواجه فيه كلا المجالين تحديات خطيرة وأزمة في السمعة، ربما لن يكون تحقيق ذلك بالإنجاز الهين.

عندما نبدأ بالتفكير في التفسير الذي أعطاه فيبر للحرفة الأكاديمية، من الضروري أن نتذكر أن Wissenschaft التي تترجم مرارا إلى اللغة الإنجليزية «علما science»، تحيل على جميع الدراسات النسقية الأكاديمية وليس فقط العلوم الطبيعية أو الفيزيائية.[96] في عصر فيبر كان Wissenschaft يحتل مكانة بارزة

(96) لهذا السبب استبدل المترجم Damion Searls، في طبعة إنجليزية حديثة جدا لمحاضرات فيبر، عنوان محاضرته «العلم بوصفه حرفة» ب «عمل الأكاديمي The Scholar's Work.»

أنظر:

في نموذج التعليم عند هامبولت Humboldtian model of education بتأكيده آنذاك على السعي إلى تحصيل المعرفة غير المتحيزة داخليا والمستقلة عن التأثير الخارجي، لاسيما تأثير الكنيسة والدولة. كان الاعتقاد السائد آنذاك هو أن المعرفة لا يمكنها أن تكون صادقة إلا إذا سادتها الحيادية والاستقلالية. وهذه هي حزمة المعاني المركبة التي يحملها اصطلاح «علم»، موضوع بحثنا الذي نصادفه في محاضرة فيبر. غير أنني سأضيف بعجالة أنه في الوقت الذي استعان فيبر بالتزام هامبولت بالحرية الفكرية بوصفها تكشف عن العالم الوقائعي، فقد تصدى للهدف الأخلاقي والقومي الأسمى الذي أسنده هامبولت إلى المجهودات الأكاديمية والجامعات.[97] يصنف فيبر قيمة كل من الحرية الفكرية والعلم Wissenschaft بوصفها منفصلة تماما عن هذا الهدف، وقدم تعريفا أكثر تركيزا لقيمة العلم.

مقاومة التسييس

يستهل فيبر محاضرة «العلم بوصفه حرفة»، مثلما فعل في محاضرته حول السياسة، بمناقشة الشروط المعاصرة للحرفة التي دعي إلى التفكير حولها. وبتركيزه على الحياة الأكاديمية الألمانية المعاصرة، فإنه

Max Weber, *Charisma and Disenchantment: The Vocation Lectures*, ed. Paul Reitter and Chad Wellmon, trans. Damion Searls (New York: New York Review of Books Press, 2020).

(97) Paul Reitter and Chad Wellmon, "Editor's Introduction," in Weber, *Charisma and Disenchantment*, x–xi.

يصور هذه الشروط في مظهر كئيب. وتتضمن هذه الشروط تنظيمها الفيودالي وبنية الجزاء التي أفرزت مستويات تعليم متدنية وعجزا عن مكافأة الأعمال الأكاديمية المتفوقة. وتنطوي أيضا على عدم استقرار يلازم العمل الأكاديمي الذي يتطلب الكثير من الجهد. وهناك أيضا القيود التي تعيق تطور التخصص الأكاديمي المستمر، والتعتيم المحتوم الذي يمارسه التقدم العلمي على الإنجازات السابقة. وفوق كل هذا هناك نزع السحر عن العالم الذي يسفر عنه العلم. إن العلم، الذي يَعِدُنا مبدئيا بالقدرة على فهم كل شيء، يستنزف الجوهر الروحي من موضوعاته، بتجريد ما يدرسه ليس فقط من الغموض، ولكن أيضا من القيمة الداخلية أو المعنى. وعلى هذا النحو يكون العلم مماثلا للسياسة في عنفها، وللتسليع الرأسمالي في نزع القداسة، وللعقل الأداتي في إفراغ القيمة من محتواها. إن العلم على هذا النحو لا ينتهك حرمة الشعوب والأمم والحرف والعلاقات، ولا ينزع عنها صفة القداسة، ولا يفرغها من مضمونها أو قوتها، بل إنه يمارس كل ذلك على المعنى والقيمة بذاتهما. إنه يعقلن كل ما يحتك به، باستبداله للمعجزات، والوقار، والإيمان بالتحليل الدقيق، أو السعر، أو الوظيفة function. إنه يفصل التقدم عن وعده الأول بالتجويد أو التحرير أو السعادة، ويختزله في مراكمة المعرفة والتقنيات. وفي الأخير يترك العالم مغمورا أكثر بالسلطة، ومجردا من المعنى مقارنة بحالته الأصلية التي وجده عليها.

وهذا هو الوضع الذي يعتقد فيبر أننا نواجهه بوصفه نتيجة

لإطاحة العلم بالسلطة الدينية وأسرار الطبيعة الغامضة من مقام نفوذها. عندما يجرد العلم التفسيرات الدينية واللاهوتية من النظام والمعنى، فإنه يعجز عن أن يحل محل ما يهدمه. ويتعدى هذا النزوع كونه يوجَّه توجيها خاطئا، إلى كونه أثرا عدميا خطيرا في حد ذاته. يرى فيبر أن الفراغات التي تفتح في عالم منزوع القداسة نزعا جذريا تخلق أينما كانت توقا شديدا إلى الأنبياء والديماغوجيين، وإلى أفكار مستثيرة ومحرضة. إن الإنجازات المرتبطة بمجال المعرفة التي تنتمي إلى الفضاء الكنسي والسياسي تصير جزءًا لا يتجزأ من قوى العدمية الهدامة التي تكون فيها «القيم النهائية والأسمى قد انسحبت من الحياة العامة»، ويكون فيها اللاهوت، «بافتراضه أن العالم ينبغي أن يكون حاملا للمعنى» الذي لا مناص له منه قد عفا عليه الزمن.[98] تعد هذه القوة العدمية والمطالب التي تنتج عنها، مظهرا رئيسا من بين المظاهر التي يتصدى لها فيبر في محاضرته.

بيد أن فيبر لم يكن منشغلا فقط بقوى العالم التاريخية، ولكن أيضا بالمواقف منها وبصور سوء الفهم حولها. يدخل فيبر في صراع مع ماركس ونيتشه في محاضرته «العلم بوصفه حرفة» وفي مقالاته المبكرة حول المنهج التي كانت سندا له في بناء قسط كبير من حجة المحاضرة. وقد كان صراعه معهما مبنيا على جوهر العلوم الاجتماعية باعتراضه على العلم الزائف المثقل بالمعايير عند ماركس، وعلى مناهضة نيتشه للعلم. كما يصارع أيضا الرومانسيين الذين يقدسون

(98) Weber, "Science as a Vocation," 28, 30.

ما يخرج عن حدود العقل irrational أو يحولون الحياة اليومية و «الأصالة» إلى دين جديد. ويصطدم أيضا برفاقه الأكاديميين الذين يعلي بعضهم من شأن القومية الألمانية من خلال عملهم الأكاديمي، ورفاقه الذين يقاربون القيمة مقاربة وضعية، ورفاقه النقابيين. (يحوِّل القوميون الجامعة إلى مؤسسة لاهوتية- «باستثناء أنها [تفتقر] إلى وقارها الديني». يرتكب الوضعيون خطأ مقوليا برفضهم للمبدأ الكانطي الذي يقضي بإخضاع كل شيء للفحص النقدي، وبِتبَرُّمِهم من البعد التأويلي لفهم الأفعال والقيم، وبتثبيتهم بإطلاق لمرجعيات الحاضر ومعاييره. يرفض النقابيون الموضوعية بازدراء، ويستغلون السلطة التي تخولها لهم مناصبهم الأكاديمية في حجرات دراسية تغيب فيها المساواة غيابا واضحا.[99]). ويعلن فيبر الحرب على من يعتقدون أن الحقيقة تكمن في خلق التوازن بين التصورات المتصارعة أو التسوية بينها بحل وسط، وهي طريقة تتناسب مع السياسة وليس العلم- فعندما تتسرب هذه المقاربة إلى العلم، فإنها تضفي على الوقائعية طابعا نسبيا وتبخس من شأن رؤى العالم النهائية. ويعد إضفاء الطابع النسبي والتبخيس تجليا من تجليات العدمية.[100] ويعارض كذلك من يخضعون التصورات المختلفة

---

(99) Weber, "Science as a Vocation," 20.

تبدو المبادئ الديمقراطية الثابتة واضحة في هذه العبارة: ينبغي، كما يشير إلى ذلك، ألا يحدث الخطاب السياسي إلا في وضعيات يكون للآخرين فيها نفس الحق والقدرة على الرد.

(100) يكتب فيبر في مقال يفسر فيه وجهة نظر وأهداف مجلة العلوم الاجتماعية التي شارك في تأسسها: «سيتصدى الأرشيف بقوة لخداع الذات الصارم الذي يؤكد أنه من خلال تركيب عدد من التصورات الحزبية، أو من خلال اتباع مسار وسط بينها، يمكن

للتنافس، بوصفها تقنية صالحة في الأسواق وليس العلم- فعندما تتغلغل هذه التقنية في العلم، فإنها تعلن عن اكتساح قيم السوق للجامعة.[101] ويتصدى لمن يدعون أن «الوقائع تثبت نفسها» عندما تصمت الوقائع بالمرة، وعندما يعني ذلك على الأرجح أن كلا من الموضوعات التي تتطلب التأويل و«الوقائع غير الملائمة» يتم تجاهلها. وتنقل هذه الممارسات إلى الحجرات الدراسية تقنيات خطابية مضللة تصلح للسجال السياسي.[102] ويتخذ موقفًا معارضا ممن يعتقدون أنَّهم قد حققوا الحياد ببناء تفسيراتهم التاريخية والاجتماعية بالاستناد إلى *سياسة واقعية* realpolitik، أو التكيف الداروينى، أو سرديات كبرى عن التقدم- وكلها بقايا لاهوتية تفتقد إلى أساس متين يسندها ولا تتلاءم مع الموضوعية الأكاديمية.[103] يذهب فيبر إلى أبعد من ذلك بتصديه للاقتصاديين الذين يعتقدون بأن العلم الخاص بهم يؤكد التفوق المعياري للرأسمالية بينما لا يستطيع قطعا أن يتجاوز وصف آلياتها

التوصل إلى معايير عملية *للصلاحية العلمية*. ومن الضروري القيام بذلك لأنه، مادامت صورة خداع الذات هذه تسعى إلى حجب معايير قيمها الخاصة باستعمال اصطلاحات نسبية، فإن ذلك يشكل خطرا أكبر على حرية البحث مقارنة بالإيمان الساذج السابق للأحزاب « بقابلية الإثبات » العلمي لعقائدهم. إن القدرة على التمييز بين المعرفة التجريبية وأحكام القيمة، والنهوض بالواجب العلمي لفهم الحقيقة الواقعية بالإضافة إلى الواجب العملي لتأييد مبادئنا يشكل برنامجا نسعى إلى التقيد به بحزم مطرد. »

Max Weber, " 'Objectivity' in Social Science and Social Policy," in *The Methodology of the Social Sciences*, ed. and trans. E. Shils and H. Finch (New York: Free Press, 1949; New York: Routledge, 2011), 58.

(101) Weber, "Science as a Vocation," 10, 13.

(102) Weber, "Science as a Vocation," 20.

(103) Weber, "Science as a Vocation," 25–33.

ودينامياتها.[104] ويعارض الفلاسفةَ والمنظرين الاجتماعيين الذين يعتقدون أن باستطاعتهم تقييم صلاحية المعايير، ناهيك عن المصادقة عليها، بدلا من الاقتصار على تحليل محمولاتها ومنطقها ونتائجها. ويتصدى أيضا لمن يؤمنون بالعقل المتعالي، ويرفضون الدور الرئيس للهرمينوطيقا وأنماط العقلانية المختلفة التي تنطوي دائما على عناصر لا عقلانية.

يجد فيبر نفسه في صراع مع خصومه، ولكنهم ليسوا خصوما دائمين. ويفهم عوضا عن ذلك معظم ما يصارعه بوصفه آثارا للأوضاع السياسية والإبستمولوجية والوجودية في عصره. وينظر إلى العصر الأخلاقي والسياسي الذي زامنه بأنه مستنزف من القيمة، ويعمل على نشرها، ويبخسها، وهو عصر تختزل فيه أحكام القيمة في قضايا مرتبطة بالذوق، ويتصف بغياب الأنبياء الحقيقيين ونشوء آخرين مزيفين، عصر يبجل الشخصية بدل الاستقامة والشرف، ويذيع معنى الحرية بوصفها إذنا تمنحه أنظمة للسيطرة لم يسبق لها مثيل. وفي عصر يصفه كما ذاع عنه بأنه يتسم بـ «أتباع المتع الحسية المتجردين من أي حس إنساني» و«متخصصين بلا فكر»، لا الإحساس ولا الفكر محصنان ضد العقلانية التي تجعلنا في الآن نفسه

(104) Weber, "Science as a Vocation," 37.

لا يمكن على الإطلاق أن يكون» يؤكد فيبر «دور العلوم التجريبية هو تقديم معايير » ومبادئ ملزمة يمكن أن تشتق منها تعليمات موجهة للنشاط العملي الآني.»
Weber, " 'Objectivity' in Social Science," 52.

أدوات تابعة للأجهزة الاقتصادية وفردانيين سطحيين.(105) لقد صارت الحقيقة منفصلة عن المعنى والقيمة، واتخذت الوقائعَ دون غيرها مقامًا لها. وفي المقابل، إن الوقائع لا متناهية في عددها وتخضع دائما للتأويل، وهي حقيقة مذلة ومخيفة، ذلك أنها عندما تقابل بالرفض، تفرز ردود أفعال في مجال المعرفة تتمظهر في صور مختلفة كالسجالات العدوانية، والوضعية positivism، والطائفية، والمذهب المسيحي الألفي millenarianism. لقد كف التقدم عن تقديم وعوده بتحقيق مزيد من السعادة، والسلم، والحقيقة، وصار محصورا في تطوير المعرفة والتقنيات التي تولد بصورة مفارقة أوضاعا تكرس سيطرة أكبر بدلا من توسيع مجال الحرية. عندما تخرج الأجهزة التنظيمية والتقنية والاقتصادية والسياسية التي تنشأ عن هذه التطورات، عن السيطرة الإنسانية، فإنها تتحول إلى قوى مدمرة للعالم تنتج عن ممارسة السلطة دون حق [شرعي].

إن انهيار الحدود الفاصلة هو عَرَضٌ رئيس في هذا العصر. لا شيء يبقى ثابتا لأنه في غياب التوجيه الأخلاقي والمبادئ المنظمة التي يرسخها التراث، يفقد المكان نفسه إحداثياته الراسخة وقيمته. وفي مجال المعرفة، إن الخلط المستمر دون توقف بين ما يسميه فيبر مرارا ممارسات «متغايرة بصورة مطلقة» - لاسيما التحليلات التي تتناول الوقائع وأحكام القيمة حولها- يحط من قدرهما، بتكثيفه لازدراء ساخر للوقائع، والحقيقة، والمحاسبة، والمسؤولية، والقيم. وعليه،

(105) Weber, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism: The Revised 1920 Edition*, trans. S. Kalberg (Oxford: Oxford University Press, 2010).

تتشعب العدمية عندما تقوض الحدود الفاصلة بين الوعظ الديني والتدريس، وبين التسلية والإخبار، وبين الشخصية والسياسة. تحل السطحية، والأداتية، والاندفاع، والإشباع الشخصي، والحاضرية محل الفهم العميق، والرصانة، والوعي التاريخي، والعناية برفاه الأفراد والعالم.

يعالج فيبر هذه الأزمة والامتزاج المتصاعد لأجناس العناصر التي تولدها انطلاقا من مفهومه المشهور عن الأضداد، وبالاستناد إلى صرامة إبستمولوجية وأنطولوجية الغرض منها حصر هذه الأضداد وعزلها عن بعضها البعض. إن الثنائيات المألوفة التي يؤكد عليها هي السياسة والمعرفة، الفصل الدراسي والساحة العمومية، الواقعة والقيمة، الادعاءات التجريبية والادعاءات النظرية، التوصيفات الوضعية والأحكام المعيارية.[106] تجدر الإشارة إلى أنه، وفقا لفيبر، لا يتعلق وضع هذا الفصل وإنفاذه فقط بالمنهج بل أيضا بالحفاظ على [تماسك] العالم. وإذا كانت العضوانية organicism المرتبطة بالحقب السابقة قد أفسحت المجال للتشظي والتخصص في عصر الرأسمالية، والبيروقراطية، والعلمانية، فإن هذا يفيد أن النظام الذي كانت تؤمنه الهرمية والسلطة قد أفسح المجال لحياة يخترقها الترابط المتسلسل للقيم، وتسيطر عليها «أجهزة جامدة». ومع تراجع العضوانية والسلطة authority، لا يتبقى سوى التنظيم المفروض بالقوة لتأمين النظام. وعلى الرغم من إدراك فيبر لما يسميه

(106) Weber, "Science as a Vocation," 11, 12, 19, 20.

«فوضى الأنماط المركبة للأفكار والمشاعر غير المحدودة والمتمايزة، والمتناقضة» في أي مرحلة أو نظام يقوم على التشكيل النسقي للأفكار ideational regime، وعلى الرغم من تحذيره للأكاديميين لكي يتفادوا خلط المفاهيم ودراسات النماذج مع الواقع، فإن مقاربته لمقاومة العدمية في الفضاء الفكري تقوم على تمييزات إبستمولوجية وأنطولوجية حادة. لا تقتصر هذه التمييزات على الترتيب الجيد للمفاهيم، بل تتعداه إلى القيام بدور رقابي عليها.(107)

لماذا؟ لماذا بلور فيبر فضاءات العمل الجاد والممارسة «المتغايرة بصورة مطلقة» - المعرفة/ السياسة، والوقائع/ القيم، والحقيقة/ الحكم- ليس بوصفها فقط تعبيرا عن فروقات نمطية ولكن بوصفها متضادات تقوض بعضها البعض عندما يحدث اتصال أو تمازج بينها؟ يسعى فيبر بموقفه الصارم على هذه الجبهة إلى احتواء الآثار العدمية في الأكاديمية، والتي تشتمل على هدم الحقيقة (التي ترد إلى المعرفة التجريبية لكنها تبقى مع ذلك محفوفة بالمخاطر)، والتقويض النهائي للمعنى (الذي يرد إلى القيم النهائية لكنه يبقى مهددا هناك أيضا)، وهدم العمل الأكاديمي (باختزاله في هدف يوظف الباحث الأكاديمي كأداة لتحقيقه). ولا يمكن صد الوضع العدمي الذي

---

(107) Weber, " 'Objectivity' in Social Science," 96.

لا يمكن حتى لأنساق القيم المختلفة أن تندمج أو تختلط ببعضها، لكن ينبغي أن ندرك أنها مقيدة ب«صراع مميت لا يقبل التسوية، شبيها بالصراع القائم بين الإله والشيطان»

(Weber, "Science as a Vocation," 17). يشير فيبر إلى أنه لا يمكن أن تخضع القيم للتسوية، أو الخلط، أو التعديل بشكل متبادل دون أن يؤدي ذلك إلى إفسادها أو تقويضها.

يجتاح اليقينية الوقائعية وعدم يقينية القيم إلا بعزلهما عن بعضهما البعض. فعندما يسعى الطلبة إلى إيجاد المعنى والقيم النهائية في عالم تغمره فوضى أخلاقية، فإن عزل التدريس عن التأثير الكاريزمي هو السبيل الوحيد الذي يمكن أن يسلكه الفصل الدراسي لكي «ييسر فهم العالم بواسطة الفكر».(108) وبصورة مفارقة، إن فرض حدود لا يمكن تجاوزها بين مجالات الكنيسة، والسياسة، والأكاديمية بعد انقسامها هو السبيل الوحيد لتثبيت النظام الذي تضافرت على تأمينه سابقا.

لا تتحرر البروتوكولات التي يحددها فيبر فقط من القيود التي تفرضها المرحلة العلمية الأقل تطورا، بل إنها تعالج أيضا آثار العدمية المدمرة للعالم وانهيار الحدود الفاصلة باتباع برنامج تصحيحي. تسعى هذه البروتوكولات إلى التصدي لحراس القيمة والسياسيين على اختلافهم، الذين يتلاعبون بالوقائعية إلى حد التشويش عليها خدمة لأهدافهم. وتتصدى أيضا للصحافيين والمدرسين الذين يتبنون عمليا موضوعية مزيفة بينما يبدو انحيازهم واضحا عندما يؤطرون الوقائع، ويختارونها، ويرتبونها. ويتصدون أيضا للتصورات الخاطئة التي ترى أنه يمكن بلوغ الحياد بخلق توازن بين الرؤى المختلفة أو بالتوليف بينها– عبر المنافسة، أو بإيجاد

---

(108) Max Weber, "Religious Rejections of the World and Their Directions," in Max Weber, *From Max Weber: Essays in Sociology,* ed. and trans. H. H. Gerth and C. W. Mills (Oxford: Oxford University Press, 1946), 352.

يكتب فيبر قائلا: «يزعم [الدين] أنه لا يكشف عن معنى العالم بواسطة الفكر ولكن بفضل كاريزما التنوير»

أرضية مشتركة.[109] إنهم يسعون إلى صون الحقيقة بحصرها في الوقائع، وصون القيمة بإحالتها إلى السياسة، حيث تكون طبيعتها غير القابلة للحسم والمتنازع عليها واضحة بشكل دائم. ويعترضون على المدرسين، وليس فقط الأكاديميين، لكي يضعوا جانبا أشكال شغفهم الشخصي وهوياتهم أثناء قيامهم بعملهم.

وبما أنه يعرف عن فيبر، كما هو شائع، كونه من صاغ البرتوكولات الخاصة بالعلوم الاجتماعية المحايدة قيميا لعصر علماني، يجدر بنا أن نفحص بدقة الأزمة الخاصة بالمعرفة التي يسعى إلى تصحيحها من خلال تخليصه لمقولاته من الشوائب. يشير فيبر في مقاله «معنى الحياد الأخلاقي» عام 1917 أن ما قد تلاشى في العقود الأخيرة هو «القناعة التي كانت منتشرة لدى أكاديميي

---

(109) وعلى الرغم من ذلك، إن الحفاظ على التمييزات التي أقامها فيبر، بعد المنعطف اللغوي ونشوء السلوكية، يتطلب التخلي عن إقراره الصريح بالأبعاد الهرمينوطيقية للوقائعية التي يتعذر استئصالها، وبالتركيب اللامتناهي للكائنات الإنسانية، وبحتمية القيم التي توجه البحث في العلوم الاجتماعية. وبصورة ساخرة، إن العلوم الاجتماعية الوضعية التي تأسست باسمه بعد هذين المنعطفين تتحاشى إصرار فيبر على وجود هوة كبيرة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، ولاسيما عدم ملاءمة إلحاق « قوانين » السلوك بالعلوم الاجتماعية، والمحاولات الرامية إلى رتق الهوة باعتماد حساب رياضي صارم، والمناهج الوضعية التي تصر على أنها ليست تاريخية، وغير مبالية بتعقيدات اللغة الإنسانية، والثقافة، والذهن، والسلطة. وبابتعاد الوضعية عن المساهمة في خلاص النوع الإنساني، فإنها تفاقم من الوضع العدمي الذي تصدى له فيبر، بإغراق المجهودات الأكاديمية في كم هائل من المعطيات والتحليلات التي تنتجها بلا معنى. وهذا هو الكابوس، الذي يقبع على أنفسنا، والذي يسعى فيبر إلى التصدي له بتأكيده على التطهير المقولاتي والحدود الفاصلة. وبتأكيده على أن يكون هناك مكان خاص بكل عنصر مع التأكد من أن كل عنصر في مكانه الذي حدد له. بالإضافة إلى التقابلات الرئيسة التي أجراها على أنماط الفهم، والتي أقر أحيانا أنه كان يفصلها حد سطحي خفيف.

العلوم الاجتماعية والتي كانت تفيد أنه من بين وجهات النظر المختلفة والممكنة في مجال الاختيارات السياسية العملية، تبقى في النهاية واحدة منها فقط صحيحة».[110] ويستطرد قائلا، عوضا عن ذلك إن «تنوع القيم الثقافية والشخصيات» التي تدعم هذه الاختيارات السياسية العملية قد استبدل ما هو « غير شخصي نسبيا» الذي يستمد من الطابع الفوق شخصي للإلزام الأخلاقي القديم.[111] بالإضافة إلى انتشار القيمة، يؤدي خلع الحقيقة عن مقام نفوذها في السياقات الأخلاقية والسياسية إلى الإعلاء من شأن الفرد والشخصية بوصفهما حاملين للقيم. ويعد هذا عاملا من العوامل التي تولد الطلب المتزايد على الديماغوجية في الفضاءات المختلفة - الكنيسة والدولة والفصل الدراسي.[112] يرى فيبر أن الربط بين تعميم القيمة والشخصية، يعد خطيرا في مجال المعرفة على وجه التحديد: عندما تصير الوقائعية غير مؤكدة في الثقافة الأخلاقية الأحادية، ينتهك المتحزب السياسي والواعظ فضاء الفصل الدراسي مرتدين زي أستاذ جامعي. إن نفس الشروط التاريخية التي تستلزم نزاهة أكاديمية أصيلة - احترام الوقائع ومقاربة القيم بوصفها فقط

---

(110) Max Weber, "The Meaning of 'Ethical Neutrality' in Sociology and Economics," in *The Methodology of the Social Sciences,* ed. and trans. E. Shils and H. Finch (New York: Free Press, 1949; New York: Routledge, 2011), 3–4.

(111) Weber, "Meaning of 'Ethical Neutrality,' " 4.

(112) يعد هذا جانبا من الجوانب التي تقوم عليها محاولة فيبر لتطوير الزعامة السياسية بالاستناد إلى الكاريزما بوصفها «مسؤولة عن تحديد خصائصها.» كما تطرقنا له في الفصل الأول.

موضوعات تحليلية- تقوض هذه النزاهة بدعمها لنشوء الشخصية. يشير فيبر إلى أن هناك رغبة عارمة لدى الطلبة في عبادة الشخصية، ويتلهف الأساتذة عديمو الضمير على إشباعها.(113) ويزيد من حدتها في وقتنا الحاضر التداخل بين ثقافة الشهرة التي امتد تأثيرها إلى الحياة الأكاديمية نفسها، والاعتماد على الطلبة لتقييم الجانب البيداغوجي، والاعتماد المتزايد للجامعات ذات الطابع التجاري على رضا الطالب. يعجز المؤيدون الصامتون للمعرفة التي تحوز مصداقية من الناحية المنهجية، والتي يدافع عنها فيبر، عن مقاومة هذه النزوعات والممارسات أو الصمود أمامها.

يلح فيبر على أن الفصل الدراسي مخصص لتدريب الطلبة وليس لتشكيلهم وفق قالب محدد، ولتطوير القدرات الفكرية وليس لزرع رؤى للعالم محددة في أذهانهم.(114) ويفيد ذلك تعليمهم الأهمية التي تحظى بها «الوقائع المزعجة» (بما في ذلك تلك التي تشوش على رؤى العالم أو السرديات التي نمتثل لها)، بفرز الوقائع عن التقييمات والأحكام التي تتناولها، وبتدريب المتعلمين على «كبح الاندفاع عند عرض أذواقهم ومشاعرهم الشخصية [الخاصة بهم]» في دراساتهم. ينبغي أن يتعلموا أن العظمة الفكرية تكمن في التدرب، والانضباط، والمثابرة، والتخصص، والتفاني، وضبط تعلق الأنا بما هو شخصي وعاطفي وانحيازه له- جميع الفضائل البروتستانتية المألوفة المتضمنة

(113) Weber, "Meaning of 'Ethical Neutrality,'" 9.
(114) Weber, "Meaning of 'Ethical Neutrality,'" 3.

في الحرفة الأكاديمية.[115] يأمل فيبر ألا تقتصر هذه الفضائل فقط على توجيه إرادة القوة التي لا مكان لها في الحياة الفكرية، بل تقوم بضبطها أيضا، على الرغم من أن الحياة السياسية، كما يفهم ذلك نيتشه وفرويد، لا بد أن تتخذ لنفسها مسارا، وسنلاحظ نشوؤها في ما بعد.[116] يعلم فيبر كذلك أن هذه المطالب تعظم تحديدا القوى الزهدية- النزعة الموضوعية، والحيادية، والتجرد من الانفعالات العاطفية، ونكران الذات العارفة- التي يرى نيتشه أنها تدفعنا إلى الانصراف عن حواسنا، وأجسادنا، والأصالة التاريخية، وملكات التأويل، وإرادة الحقيقة. وعليه، إن المشروع الذي يخص فيبر به الأكاديمي، يصد العدمية من باب ويفتح لها بابا آخر تعود منه.

يسعى فيبر إلى تفادي الخلاصات النيتشوية لكنه يخفق في ذلك. إن الموضوع المهيمن في محاضرته هو التفاني الذي لا جدوى منه في تحصيل معرفة يحتمل ألا يُعترَف بها، ومن المؤكد أن يتم تجاوزها. تقر المحاضرة بالإحباط والانزعاج الذي يشعر به الأكاديمي الحديث دون أن تعرض حلا لهذا الشعور. وعلى الخلاف من ذلك، يصر فيبر على أن المعرفة التي تحصر فيما يمكن التحقق منه تجريبيًّا وتحليله بحياد تتطلب أن يعامل «العنصر الإنساني» أثناء سعيه إلى المعرفة

(115) Weber, "Meaning of 'Ethical Neutrality,' " 5.

(116) يعرض فيبر، من جديد، أزمة راسخة في الشروط التاريخية الحتمية التي يقترح معالجتها عن طريق شروط خاصة وتقابلات يفترض أنها وقائعية (ومن ثم حقيقية) عوض كونها أخلاقية أو سياسية (ومن ثم متنازع عليها)، على الرغم من أنه يقر بوضعها التاريخي الخاص ويضع في كثير من الأحيان حدودا من قبيل «الموضوعية»، و«الحياد»، و«العيش دون أوهام» بين علامات التنصيص للتأكيد على طبيعتها الملهمة الدائمة.

بموضوعية بدل إطلاق العنان له. إنه يؤيد ممارسات المعرفة التي لا تتوقف عند حرمان العالِم من الشعور بالرضا والعالَم من المعنى، بل تتعدى ذلك إلى تأليب إرادة المعرفة (أو إرادة القوة الناتجة عن المعرفة) على أصل منشأها، بتقييدها بشدة لا مثيل لها بسبب قدرتها المحكمة على الاحتواء. يؤكد نيتشه بشدة على أن تأليب الذات على الذات سيصل في الحضارة الغربية إلى مستوى من التصعيد تصير فيه إرادة العدم متزامنة مع انحطاطنا - وهما عرضان بارزان من أعراض العدمية ابتليت بهما الثقافة السياسية في الحاضر. ماذا يعني رفض احتواء التغير المناخي، واختيار الخضوع للسوق بدل اعتماد مقاربات متمركزة حول الإنسان غير إرادة العدم؟ وماذا يعني الازدراء الاحتفالي الذي تمارسه السلطة دون حق على الوقائع والحقيقة إذا لم يكن ذلك انحطاطا؟ وماذا يعني الهدم المقصود للمعايير والمؤسسات الديمقراطية للحفاظ على السلطة في يد قاعدة ديمغرافية متداعية غير سياسة السلطة الخالصة التي تعد هي نفسها نتاجا للعدمية؟

القيم

كما أشرت سابقا، على الرغم من تأكيد فيبر على اضطلاع الوقائع بدور خاص بالنسبة إلى العلم، فإن اللحظات القوية والدقيقة في محاضرة «العلم بوصفه حرفة» تدور حول الكيفية التي ينبغي أن يحلل بها الأكاديميون والمدرسون القيم. لماذا؟ في المقال السالف بيَّنت أن فيبر يربط القيم بالسياسة، والسياسة بالانتماء الحزبي،

والسلطة، والقوة، والعنف في أقصى الحالات. تمثل هذه السلسلة من التحديدات موجزا للسيرورة التاريخية التي يسطرها فيبر، وتحوز تأثيرا مهما على مشكلة معالجة سؤال القيم معالجة أكاديمية في عصر عدمي. ويربط فيبر في واحدة من مقالاته المنهجية القيمَ بالثقافة وليس السياسة.(117) فلكي تكون الكائنات ثقافية، كما يرى ذلك فيبر، فذلك يعني أنها «مخصوصة بالقدرة والإرادة على اتخاذ موقف متأن تجاه العالم وإضفاء *المعنى* عليه».(118) ويضيف أيضا أن مفهوم الثقافة نفسه هو «مفهوم قيمي... يصير الواقع التجريبي بالنسبة إلينا «ثقافة» طالما أننا نربطه بالأفكار القيمية».(119) (فنحن لا نتوقف عند الأكل، والتكاثر، والتعلم، بل إننا نستمتع بأسلوب الطبخ، ونبني المؤسسات كالأسر، ونطور مناهج دراسية تعكس حس الهوية الجماعية لدينا «نحن»). إذن، كيف تنتقل القيم من المجال الثقافي إلى المجال السياسي في فترة الحداثة المتأخرة؟ تصير القيم، وفقا لفيبر، سياسية عندما تستأصل من رؤية موثوقة للعالم راسخة ومشتركة. في هذه المرحلة، تصير هذه القضايا موضوعا للصراع وغير قابلة للحسم إذا لم يكن هناك استعمال (مؤقت) للقوة الخطابية، والقانونية، والعنف الجسدي. وكما رأينا من قبل، يصدق ذلك أيضا عندما تصير غير حصينة أمام التسييس العدمي المفرط. إن تسييس

(117) يعرف الثقافة بوصفها «جزءا متناهيا داخل اللانهائية الخالية من المعنى لسيرورة العالم... التي تضفي عليها الكائنات الإنسانية المعنى والأهمية.» Weber, " 'Objectivity' in Social Science," 81.

(118) Weber, " 'Objectivity' in Social Science," 81.

(119) Weber, " 'Objectivity' in Social Science," 76.

الثقافة، الذي ينشأ عن اجتثاث القيمة من أسسها وفصلها عن السلطة، هو عامل يسهم في تقويض الليبرالية نفسها: لا تكون التعددية الثقافية فعالة إلا عندما تتموضع الثقافة خارج مجال السياسة، ولا يكون عدم التسييس هذا ممكنا إلا إذا رسخت القيم بإحكام وصارت مشتركة. إن ما يطلق عليه عصر سياسة الهوية لم يغير هذا كله ولكنه يفيد، بالأحرى، كمقياس لخسارته.(120)

تؤدي الترابطات المعاصرة التي يقيمها فيبر بصورة واضحة بين القيم، والسياسة، والحزبية، والقوة إلى ثلاث نتائج. أولا، إنها تحول القيم جميعها إلى مواقف عملية متاحة للتحليل الموضوعي، وتُموضِع سنَّها العملي في مجال حيث يستدعي الفصل بين الدوافع والآثار تحمل المسؤولية ليس فقط تجاه المبادئ وحدها، ولكن أيضا تجاه ذلك الفصل. فلا يمكن لأي غطاء ديني أو أخلاقي أن يجعل الفاعلين في حلٍّ من تحمل هذه المسؤولية. ثانيا، إنها تحول المجال السياسي إلى معترك تحتدم فيه الصراعات حول القيم، أو ما يسميه فيبر «الآلهة

(120)هذا هو السبب الذي دعا فيبر إلى وصف القرن العشرين بأنه عودة (سطحية) إلى تعدد الآلهة القديم. وبمناقشة عدم إمكان اتخاذ قرار موضوعي حول ما ينبغي أن نضفي عليه قيمة، ، أو توقع أن تنحاز القيم لما هو خيِّر وجميل، أو ترتيب الثقافات المختلفة حسب أهميتها، يكتب فيبر قائلا: «يستعر الصراع بين الآلهة المتعددة، وسيستمر ذلك إلى الأبد. إنه على حاله كما كان في العصور القديمة قبل أن يُسلب من العالم سحر آلهته وشياطينه، لكنه [صراع] بمعنى مختلف. ومثلما كان اليوناني يقدم القرابين تارة لأفروديت، وتارة أخرى لأبولو، وفوق ذلك كله، لآلهة مدينته جميعها، فإن الناس اليوم يفعلون ذلك بطريقة مماثلة. لقد جردت الآلهة من صفاتها السحرية والأسطورية في وقتنا الحاضر، دون الصفات الباطنية الحقيقية التي منحتها هذا الطابع الفوري الحيوي» (Weber, "Science as a Vocation," 23, italics added). إن افتقارها لحقيقة باطنية علامة دالة على أن الأشياء التي كانت راسخة في الثقافة صارت الآن مسيسة.

المتناحرة». ثالثا، إنها تحول ذلك المعترك إلى فضاء محتمل، على الرغم من كونه غير حتمي، لاسترجاع القيمة وملاحقتها في سياق ما بعد عدمي، وإن كان ذلك في حضور كل من القوى التاريخية الثائرة والخاضعة والتي تقوض القيمة.

وتنطوي هذه الترابطات أيضا على مضاعفات تلقي بضلالها على العمل الأكاديمي، والمناهج، والبيداغوجيا. فهي تؤكد على حجة فيبر التي تفيد أن تطوير المعرفة وتعليمها لا ينبغي أن يصابا بعدوى القيم أو أن يتأثرا بها. فإذا كانت القيم الآن راسخة سياسيا بسبب رسوخها العرضي والحزبي، فإن أدنى نزوع أو اندفاع معياري يكون إفسادا هداما للعمل الأكاديمي. ولا يمثل هذا النزوع فقط انحيازا أو مصلحة شخصية، بل إنه يحمل عدم قابلية الحسم، وبصورة ملحوظة أيضا القوة والسلطة الكاريزماتية المحتملة إلى مجال يؤدي وجودهما فيه إلى تقويضه. وبصورة بارزة، إن هذه المطالب المتشددة، التي تدعو إلى الموضوعية في البحث والتحليل، وإلى حيادية القيمة في الفصل الدراسي، هي نفسها نتاج لمقاربة فيبر ما بعد التأسيسية للقيم. ومن المستغرب كونه يرفض المعايير الكونية أو الالتزامات الأخلاقية المتعالية، ولا يعول على المسوغات المحكمة لبناء معايير ذات صلاحية. ويرى، عوضا عن ذلك، أن القيم راسخة سياسيا في الأزمنة المعاصرة لأنها تفتقر إلى أساس متين، ولأنه لا يمكن للحقيقة أن تحافظ عليها ولا يمكن أن تصان بوصفها حقيقة. وبتعبير آخر، إن استئصال القيم من جذورها، وكذلك قابلية التنازع والاختلاف

حولها يشكلان الأساس الذي تقوم عليه طبيعة السياسة المعاصرة نفسها على الرغم من أن فيبر لم يكن صريحا أبدا على هذا النحو. تشكل القيم المتناحرة جوهر الصراع السياسي الذي تكون السلطة والعنف وسيلتين مهيمنتين فيه. وكما رأينا في السابق، لا يطمح فيبر إلى إيجاد حلول للاَّعقلانية المترتبة عن هذا المجال، بل إنه يسعى فقط إلى تقييدها بالمسؤولية والحد من العنف الذي ينتج عنها، وإلى استبعادها من مختبرات المعرفة.

تلازم القيم مجال السياسة، وتعد السياسة مجالا لممارسة السلطة والعنف، ولا تتحقق المعرفة العلمية إلا باستبعاد كل هذا - السلطة، والشغف، والحزبية، والعنف- عنها. يوضح فيبر هذا التعارض من خلال اللغة نفسها. في الفضاء السياسي، كما يقول:

ليست الكلمات التي تستعملُها أدوات معتمدة في التحليل الأكاديمي، بل هي أسلوب تتبعه لإقناع الآخرين بتبني رؤيتك السياسية. إنها ليست محاريث لتخفيف تربة الفكر التأملي الصلبة، بل هي سيوف ... تُستخدَم ضد خصومك: إنها باختصار أسلحة. سيكون انتهاكا استعمال اللغة على هذا النحو في قاعة المحاضرات.[121]

إن التباينات بين لغة الإغواء ولغة التحليل، بين الكلمات بوصفها أسلحة والكلمات بوصفها محاريث، وبين الحرب والسلم - هي اختلافات محورية لا يتعلق الأمر بدرجة حدتها. «كلما قدم

(121) Weber, "Science as a Vocation," 20.

الأكاديمي حكم قيمة شخصي»، يؤكد فيبر بشدة، «لا يعود هناك فهم كامل للوقائع».[122] إن عدم الانحياز، والحياد، والتقيد بالوقائع والمنهج تقع على طرف نقيض من مواقف، وسلوك، وتأثير «النبي والديماغوجي». هناك من يتبادل الحديث بعقل هادئ، وآخر بشغف متقد، وهناك من يسعى إلى الحقيقة، وغيره يسعى إلى السلطة، وهناك من يسعى إلى إثارة الفضول والتفكير لدى سامعيه، وهناك غيره يسعى إلى استمالة الأتباع.[123] قد يبدو أن الموقف المتشدد عند فيبر هو بمثابة انفجار لإرادة السلطة التي كنا نتوقع نشوءها في مستوى معين عند الأكاديمي المنضبط بشكل صارم. يتضح هذا الموقف المتشدد من خلال تأييد فيبر القوي للمناهج المتبعة في تحصيل المعرفة.

لا يفصل فيبر مرة أخرى القيم عن حقل المعرفة. وسيتركها عدم الفصل هذا محتفظة بسلطتها، وهي سلطة ينبغي إضعافها لعزل المعرفة عنها بصورة كاملة. وعوضا عن ذلك، فهو ينقل القيم من الذات إلى موضوع المعرفة التحليلي، وإن كان ذلك يؤدي إلى تجريدها من خصائصها العاطفية العميقة والعملية، ومن انبثاقها عن فضاء ذاتي يعلو عن الوصف، ومن انتشارها الحماسي في الفضاء السياسي. وبنقل التركيز على القيم من الذات العارفة إلى موضوع المعرفة، ومن

(122) Weber, "Science as a Vocation," 21.

(123) بعيدا عن مجرد كونه غير مسؤول ومستغلا للاختلافات التي تطرأ على السلطة (وهو ما يعد جزءا مما يركز عليه فيبر في محاضرته «العلم بوصفه حرفة». إن الفهم نفسه هو المعرض للخطر.

الاعتقاد والقناعة إلى موضوعات للدراسة أو الفحص، فإن ذلك يحملها إلى مجال علمي بإمكانه أن يكشف عن منطقها الداخلي ومضاعفاتها الخارجية، ويبرز افتقارها إلى أساس يسندها. ستؤدي هذه المقاربة إلى تحييد تأثيراتها السحرية بالإطاحة بها بوصفها «آلهة»، وإخضاعها بدل ذلك للتحليل بوصفها معايير تحوز افتراضات وتستتبعها نتائج. يذهب فيبر بهذا الموضوع إلى أبعد من ذلك بقوله: يُختزَلُ «معنى» القيم في ارتباطها بغيرها من القيم. وفقا لفيبر، من واجب الأكاديمي أو المدرس أن يبين أنه «إذا اخترت موقفا محددا، فإنك تنحاز إلى إله بعينه، وستستاء منك باقي الآلهة». وعلى هذا النحو «نستطيع أن نلزم شخصا، أو على الأقل نساعده، على إعطاء تفسير للمعنى النهائي لأفعاله... وإذا أفلح المدرس في ذلك، سيغريني القول بأن فعله يخدم قوى «أخلاقية»، أي واجب الرقي بالوضوح وحس المسؤولية».(124)

إن مجرد ورود إمكان تحقيق حيادية القيمة أو الموضوعية عند وصف شيء ما أو تحليله يلاقي اعتراضا واسعا ومسوغا اليوم. بيد أن هذا ليس هو ما يدفعنا إلى الاهتمام بمحاولة فيبر استعمال الموضوعية لصون المعرفة والقيمة في عصر عدمي، بل إنَّ ما يلفت النظر هو الكيفية التي تتحول بها القيم - وحتى التي تنتهك بها- عندما يتم تناولها بوصفها مواقف معيارية ذات مبادئ قابلة للتحليل ونتائج منطقية. ويحصل ذلك باستبعاد أبعادها النفسية، والدينية،

(124)Weber, "Science as a Vocation," 26–27.

والوجدانية، وبفصلها أيضا عن السياقات الثقافية والتاريخية التي تعطيها وزنا ومعنى. يفهم فيبر ذلك بصورة أفضل. يتفوق فيبر كمنظر يفهم أن القيم تاريخية، ومتنوعة، وتتجاوز الوصف، ويفهم أن صور تعلقنا بها يرجع إلى أصول نشأةٍ ربما تكون شخصية أو ما وراء شخصية transpersonal، أو تجريبية، أو لاهوتية. إنه يعلم جيدا أن القيم نفسها لا تصدر فقط عن تقاليد ثقافية وسياسية، بل أيضا عن رغبات، وطموحات، وآمال، وأوهام، وأحقاد، وضغينة، ورغبة في الانتقام- أي كل ما وصفه نيتشه كونه ثمنا نؤديه لإقامة مثل عليا على هذه الأرض. ويؤدي هذا السعي لجعل العلم أداة مفيدة لتحقيق الوضوح الإيتيقي والأخلاقي والسياسي، ومن ثم مفيدا [لتنزيل مبدأ] المسؤولية، إلى تحولٍ عندما يضفي طابعا صوريا على موضوع دراستها. زيادة على ذلك، يهدف هذا السعي إلى عقلنة القيمة نفسها... بالدفع بها نحو التخم الأخير الذي يرابط فيه مفهوم نزع السحر عن العالم.

يدرك فيبر أن مطالبة الأكاديميين ولاسيما المدرسين بأن يتناولوا دراسة القيم بوصفها مواقف عارضة تنطوي على مضاعفات، وتعارضات، وأشكال استبعاد حتمية تؤدي إلى التشويش على الممارسة التي يربطها بجوهر إنسانيتنا وتضعفها، أي تلك الممارسة المتعلقة بإضفاء المعنى على الحياة والحسم فيما هو مهم. إن مطلب تسريع نزع السحر عن العالم يحوِّل رؤى العالم إلى مواقف معيارية جافة ومنفصلة، مجردة من قواها الساحرة والمحفزة، ومن قدرتها على

تغيير معنى التاريخ والحاضر. يطالب فيبر بأن تكون الأكاديمية فضاء لحدوث هذا الفصل التجفيفي، وبأن يصطف الأساتذة الجامعيون داخلها كعمال في خط التجميع بصيغة تايلورية، ملتزمين بمجالات تخصصهم، ومستبعدين لأحكامهم واهتماماتهم الشخصية. وتؤلف هذه القيود مجتمعة هجوما أقوى على القيم يتعدى دعوة نيتشه نفسه إلى إعادة تقييمها الجينيالوجي- تحتفظ مقاربة نيتشه بالقوى المغرية للقيم وأدوات دفاعها وهجومها، بينما تهدف التوصيات أو المبادئ التي سطرها فيبر إلى تجريدها من قواها وأدواتها. وبخلاف نيتشه الذي يعيد إدماج القيم ما بعد العدمية في الرغبة في الحب والسلطة، يتناول فيبر القيم كما لو أنه بالإمكان تقييمها بالاستناد إلى الفحص العقلاني لاقتضاءاتها المجردة على الرغم من علمه بأن ذلك لا يتماشى مع الكيفية التي تعمل بها القيم ومجال السياسة الذي يحدث فيه الصراع حولها.[125] وهكذا تؤدي بروتوكولات المعرفة عند فيبر في آن واحد إلى التحريض على إفراغ العالم من القيمة، وإلى تقييد الفهم الإنساني وتحويل الموضوعات التي يَلتزم بدراستها فقط. توظف هذه البروتوكولات قوة العلم التشييئية لإضعاف ما تعتبره قوة ذاتية للقيم - ليس فقط بإنكار وجود القيمة في المعرفة، ولكن أيضا برفض أن يكون للقيمة وضع معرفي.

---

(125) يسمي فيبر هذا خدمة تقدم للطلبة، ويتم تمكين الطالب من خلالها من «تقديم تفسير للمعنى النهائي لأفعاله الخاصة،» وخدمة للأخلاق طالما أنها تشجع على تطوير «الوضوح وحس المسؤولية.» Weber, "Science as a Vocation," 26–27.
Friedrich Wilhelm Nietzsche, *On the Genealogy of Morals*, ed. and trans. W. Kaufmann (New York: Random House, 1967), 119.

تستلزم معالجة فيبر للقيم على هذا النحو أن يتفادى النقد الذي وجهه نيتشه للتفسيرات التي لا تصدر عن موقف محدد، وتأبينه «للوهم المفاهيمي القديم والخطير» المتعلق بـ«ذات عارفة خالصة مجردة من الإرادة وسرمدية»، «لا منظور واحد تدير نظرها إليه»، وتسعى إلى إبادة «القوى النشطة والتأويلية».[126] يتجاوز فيبر مجرد رفضه للنزعة التأويلية الراديكالية عند نيتشه، ولكشفه عن إرادة القوة التي تؤثر في المعرفة برمتها، ويستدعي من ناحية أخرى الزهد الذي يشخصه نيتشه بوصفه مرضا يبلغ ذروته بتحوله إلى عدمية. فإذا كانت العناية بالعالم أو المعاناة التي تنتج عن معضلاته يمكن أن تؤثر في موضوع دراستنا، فإنه ينبغي التخلي عن تلك الالتزامات بالإضافة إلى الرغبة الشديدة في إرضاء الذات أثناء إجراء البحث. يقتضي العمل الأكاديمي ترك الاعتقادات الشخصية أو الانشغال الشخصي بقضايا العالم جانبا أثناء البحث والتحليل، كما تقتضي أيضا التخلص من أي تعبير شخصي متضمن في العمل، وتبنِّي مقاربة عقلانية منتظمة ومنهج متجردين من الشخص أو الشخصية. زيادة على ذلك، ينبغي أن يقبل الباحثون الأكاديميون بأن مجهوداتهم قد لا تقودهم في النهاية إلى أي نتيجة، وأن «اكتشافاتهم» قد تتوارى بعد ظهور نتائج بحث جديدة تتفوق عليها. يرى وولين Wolin أن «الشروط القاسية بل والمفرطة التي يفرضها فيبر على عالم الاجتماع تماثل الالتزام الكالفيني برسالة

(126) Friedrich Wilhelm Nietzsche, *On the Genealogy of Morals,* ed. and trans. W. Kaufmann (New York: Random House, 1967), 119.

الإنجيل وقواعد التقوى التي يأمر بها رجال الدين التطهيريون».[127]

يؤيد فيبر فكرتي «إخصاء الفكر» و«رفض الحياة» ولكنه يؤكد أيضا على «غريزة الحماية التي تنتج عن عيش حياة فاسدة» التي يربطها نيتشه بمبدأ الزهد و«نهج تجويع الجسد والرغبات» عندما تنقلب إرادة القوة على غرائز الحياة نفسها.[128] يكتب نيتشه قائلا:

حياة الزهد هي تناقض ذاتي. يحكمها امتعاض لا مثيل له، وتحركها إرادة قوة لا تشبع، تسعى إلى السيطرة على الحياة برمتها وليس فقط على بعض مظاهرها، بما في ذلك شروطها الأعمق والأقوى والأساسية. إنها محاولة لاستعمال القوة لعزل القوة عن مصادرها.[129]

يقر فيبر بل ويتبنى هذا المنعطف الماسوشي* masochistic لإرادة القوة المنقلبة على الذات في الحياة الفكرية، ويزيد من هذه المعاناة بتأكيده على الطبيعة الظرفية للإنجازات العلمية. يشبه الباحث الأكاديمي وعاء فارغا يسخر نفسه لخدمة هدف، وهو مطالب بنكران الذات وبتجريد العالم الذي يدرسه من المعنى- وهذه هي الممارسة الزهدية التي تنبأ نيتشه بأنها ستؤدي إلى «عدم مشتهى»،

(127) Sheldon S. Wolin, "Max Weber: Legitimation, Method and the Politics of Theory," *Political Theory* 9, no. 3 (August 1981): 401–424, 413.
(128) Nietzsche, *Genealogy of Morals,* 117–121.
(129) Nietzsche, *Genealogy of Morals,* 117–118.

* المتعلق بالتلذذ من إيلام الذات.

بوصفه روحا عدمية يبتلى بها الباحث الأكاديمي الذي يسعى إلى إخماد الروح في كل ما تلامسه.[130] لا تستوعب أطروحة فيبر الخاصة بنزع السحر عن العالم ما يمكن أن تحققه هذه الممارسة كما يفهم ذلك نيتشه. عندما يخضع الباحث الأكاديمي الموضوعي والمحايد أخلاقيا *العالَم* للفحص الدقيق، فإنه لا يجرده فقط من غموضه، ومعجزاته، ومعناه، وعظمته، بل إن السمو الفكري نفسه- في الأدب، والفن، والنظرية بجميع أصنافها- تستهدفه الشروط التي وضعها فيبر للباحث الأكاديمي وتختزله لصد التأثيرات العدمية في الفضاء الأكاديمي. بيد أن هذا الدافع الذي يحث على إضعاف الحياة واختزالها، بما في ذلك الحياة الفكرية، هو نفسه، بالنسبة إلى نيتشه، الدافع المحرك للعدمية التي خرجت من صلب مذهب الزهد.[131]

لم يتوقف فيبر عند تأييده لنظام الحرمان الروحي والفكري، بل أسس بيئة لتعذيب أي ممارس لحرفة المعرفة. يلفي هذا المخلوق نفسه محكوما بالتكديس المحموم للوقائع الذي يقترن بتقويض القيمة في قلب تحليل فيبر لانحدار الحداثة إلى المجهول. يشير وولين **Wolin** بقوله «ينخرط الباحث الأكاديمي في التكديس بصورة مماثلة للكالفيني الذي وصف [في كتاب الأخلاق البروتيستانتية]» وإن

---

(130) Nietzsche, *Genealogy of Morals,* 163.

(131) من المحتمل أنه ما كان لنيتشه أن يتفاجأ من أن النزعة التاريخية، والتحليل الصوري، وحتى التفكيك قد وظفوا للحط من عظمة العلوم الإنسانية، على الرغم من أن هذه المقاربات التي تتناول الفهم الإنساني لا تطمح بشكل صريح لتحقيق هذا الهدف.

كان «ما يكدسه لا يحوز قيمة دائمة على غرار باقي أشياء العالم الأخرى».[132] وبالفعل، يعكس فيبر بنبرة أكاديمية بنية الرأسمالية عندما تستقر روحها على ما يسميه «أُسُسًا آلية»، وبنية الاكتئاب التي تحدثها العدمية: متحمس لكن من دون هدف، مضطرب ومهووس لا مخرج له من ذلك، مستعر الرغبة لكنها مخنوقة، ودون سبيل إلى الراحة. وبإدراك فيبر العميق للآليات الحديثة التي تقوض الحرية الإنسانية، والقيمة، والشعور بالرضا، فإنه يبني قفصا خاصا به للمعرفة والعمل الأكاديمي بالاستناد إلى برنامج عمل هذه الآليات الحديثة: فصل الوسائل عن الغايات، اختزال الباحث الأكاديمي كأداة، تلاشي الغايات كلها، ووقوعنا في دوامة الانتقاص من قدر القيمة التي لا فِكاك لنا منها. إن الحط من قيمة المعرفة والعارف بها وتحويل المثقف إلى عامل في خط التجميع الخاص بالتقدم العلمي لا يهدف فقط إلى استنزاف المعنى من العمل ولكن أيضا تجريده من الشعور بالرضا النفسي. تقتضي الحرفة روح إفراغ الذات kenosis والتصالح مع فكرة تجاوز الأفراد بسبب الطراز القديم والحتمي للمعرفة التي ينتجونها.[133] وفي إطار إصرار فيبر على إلغاء الشخصية، وعلى الموضوعية، والالتزام بالمنهج، واستبعاد الحقائق المطلقة من البحث العلمي، فإنه ينكر على الباحث الأكاديمي حتى الشعور بلذة متسامية ناتجة عن الإبداع أو فرض البنية على موضوع

---

(132) Wolin, "Max Weber," 413.

(133) لا يصنف الفرد على أنه وعاء بالمعنى الأفلاطوني لعدم وجود صلة مع المثل الفكرية، ولعدم وجود ترابط حسي مع الحقائق المطلقة.

الدراسة، ويرفض أن يكون للمربي يد في التحول الذي يمكن أن يرتبط بالتدريس.

يحترس فيبر كثيرا - ويحتمل أن ذلك تجسده حالة الاكتئاب التي عاشها هو نفسه- من البعد التراجيدي لهذه الشروط التي يفرضها على الأكاديمي، ومن الجهاز الذي يدعمه، ومن صور الرضا والخلاص التي يتصدى لها. تعكس محاضرته حول العلم عادة شعورا مكتئبا حول ماهية العمل الأكاديمي وما يتطلبه، حتى وإن نظر إليه بمعزل عن الأوضاع المعاصرة البئيسة. وفي هذا الصدد، يتناقض هذا المنظور تناقضا حادا مع الوصف الذي يقدمه لحياة السياسي. بينما تتطلب كلتا الحرفتين من الفرد «أن يتحمل قدَر العصر كرجل جلْد»، أو الارتداد إلى «أحضان الكنائس القديمة الرحبة والرحيمة»، لا يقدم العلم أي ملذات تعويضية ناتجة عن التمتع بـ «ممارسة الفرد للسلطة الصريحة التي يملكها»، أو عن إعطائه معنى لحياته لتفانيه في خدمة قضية ما، أو «تأثيره المباشر في سيرورة بعض الأحداث التاريخية المهمة».(134)

تغيب لحظة المقاومة اللوثرية Lutheran moment of resistence ويغيب معها موقف «هنا أقف، ولا يسعني فعل غير ذلك». ولا وجود لهدف أسمى يسعى النشاط العلمي إلى تحقيقه يشبه الهدف الأسمى الذي يسعى رجل السياسية بشغف إلى تحقيقه

(134) Max Weber, "Politics as a Vocation," in *The Vocation Lectures,* ed. D. Owen and T. Strong, trans. R. Livingstone (Indianapolis: Hackett, 2004), 40, 76.

وهو يحيط سعيه بالرصانة والانضباط. فليس هناك هدف لتغيير العالم، ومن ثم لا وجود لشعور بلذة الرضا يكافئ الباحث الأكاديمي نفسه به يمكن أن يقرنهما إلى التزامه بالمنهج العلمي. إن الهدف الوحيد هو العلم دون زيادة، وهو هدف لا متناه ولا ينطوي على معنى نهائي. نتيجة لذلك، بخلاف أخلاقيات السياسي، الذي يتعين عليه أن يوازن بين المبدأ، والطموح، والمسؤولية، إن «المبدأ الأخلاقي الوحيد» بالنسبة إلى الباحث الأكاديمي يتحدد في «النزاهة الفكرية الواضحة». يتطلب التصدي لخلو العلم المطلق من المعنى «ثباتا رجوليا» فقط.[135]

يبدو أن التمييزات التي أقامها فيبر وبروتوكولات المعرفة كما حددها تحظر النظريات الاجتماعية والسياسية التي تنحرف عن الموضوعية والتجريبية لصالح ممارسات تعتمد الخيال والنظر المجرد في الفهم والتفكير. وفقا لشيلدون وولين إننا نعول بحق على هاتين الملكتين لفهم البنى والقوى السياسية والاجتماعية لإنتاج تفسيرات «شاملة الدقة» للحياة السياسية اللازمة، ويرجع ذلك إلى أنه لا يمكننا إجراء «ملاحظة» مباشرة لجميع الظواهر السياسية.[136] «إن استحالة الملاحظة المباشرة تفرض على المنظر أن يمثل صورة المجتمع

---

(135)Weber, "Science as a Vocation," 31.

أو كما يقدم مترجم آخر، Damion Searls، هذه العبارة « في قاعة المحاضرات، إن النزاهة الفكرية البسيطة هي الفضيلة الوحيدة التي يعول عليها.» ,Weber

(136) Sheldon S. Wolin, *Politics and Vision: Continuity and Innovation in Western Political Thought,* New Princeton Classics edition (Princeton: Princeton University Press, 2016), 19.

بتجريد بعض الظواهر وإقامة الترابطات الباطنية التي لا يمكن ملاحظتها. تعد ملكة الخيال بالنسبة إلى المنظر أداة لفهم عالم لن "يعرفه" بطريقة مباشرة».[137] يسعى فيبر إلى أن يخلص علم الاجتماع من هذا التألق التخيلي الإبداعي الذي يعول على تنظيم غير تجريبي للمعرفة، وعلى ارتباطه الوثيق بالتشكيل الإبداعي للعالم في الفكر، على الرغم من أنه معجب به في الأدب، والفن، والتراث. إن التنظير للعالَم باعتماد الخيال، وإن كان فيبر يحوز موهبة استثنائية في هذا الشأن- أبان عنها في تفسيراته للعقلنة، والكاريزما، ونزع السحر عن العالم- دون الخضوع للمنهج يعد من الناحية الإبستمولوجية غير موثوق، وغير قابل للتدريس، ومحفوف بالمخاطر. إننا مقيدون بالبحث التجريبي، والنماذج المثالية، ودراسات النماذج، والفحص التحليلي الهادئ للثقافة والقيم. وبطريقة مماثلة لتطهير أفلاطون لجمهوريته المثالية من الشعراء، يشدد فيبر أكثر على الصرامة الزهدية وتقويض المعنى.

وعلى العكس من تطوير فيبر لمفهوم الحرفة Beruf في السياسة، حيث يموضعه ضد القوى السائدة في عصره، فإنه يربط حرفة الباحث الأكاديمي ربطا وثيقا بمفهومي العقلانية ونزع السحر عن العالم، وبالتقليل من شأن القيمة وهيمنة الأجهزة التي تنشأ عن عقلانية حسابية. بدلا من التصدي لهذه النزوعات، يتجه المجهود الأكاديمي إلى تعزيزها بتكريسه للتخصص، والموضوعية، والمنهج

(137) Wolin, *Politics and Vision,* 19.

وفك الارتباط العاطفي. لذلك يقطع فيبر الصلة الأنوارية بين المعرفة والتحرر، وينصرف عن مبدأ هامبولد الذي يرى أن الجامعات تبني الثقافة. كما حظر أيضا على الأكاديمية الانخراط في تشخيص المشكلات والأزمات الاجتماعية، وهو عمل ننسبه إلى النظرية النقدية وإنتاج المعرفة النقدية. وعليه، يسمح نموذج فيبر للأكاديميين، بوصف «عصر المعلومة» الذي ينتج إمكانات منقطعة النظير للمراقبة والتلاعب بالأفراد، ولا يسمح بنقده. وهو عصر يخضِع فيه رأس المال جميع مظاهر الحياة للتقلبات المالية، وتقسَّم فيه المعرفة إلى فروع متخصصة، ومنفصلة عن القضايا الحقيقية للعالم، مما يسفر عن انخراطها الضعيف في توفير حلول للأزمات المعاصرة المتعلقة بقابلية العيش على هذا الكوكب، والإنسانية، والديمقراطية وانعكاساتها علينا. كان فيبر يدرك أن هذا الوضع القاتم على وشك الحدوث، إلا أن طريقته في احتواء التقويض العدمي للمعرفة والحقيقة قادتنا مباشرة إليه.

المعرفة والدين

إن التحرر من النزعة العقلية والنزعة الفكرية للعلم هو المقدمة الأساس لحياة موحدة مع الذات الإلهية.

– ماكس فيبر

إلى هنا قد فحصنا صيغة المعرفة عند فيبر والشروط الضرورية لإنتاجها بالنظر إلى التقابل الذي يقيمه بين الصراع الذي تحركه القيمة في الفضاء السياسي، وتجميع المعرفة المجردة من القيمة في

الفضاء الأكاديمي. ويكتسي هذا التقابل دورا محوريا في جدله ضد البحث والتدريس المنحازين سياسيا. بيد أنه ينتقل في الجزء الأخير من محاضرته من مناقشة مشكل السلطة السياسية إلى مناقشة مشكل المقدس، ومن ثم يستبدل السياسة بالإيمان كنقيض للمعرفة. إن تعدد القيم العلمانية، كما يبين، يشعل فتيل ما يسميه «معارك بين الآلهة» لا يستطيع العلم والمدرسون تسويتها ولا يجوز لهم ذلك.(138)

أشرت في المقدمة أنه، وفقا لفيبر، من بين تبعات العقلنة والعدمية التي تنشأ عنها نجد انفصال المعرفة، والسياسة، والدين في فترة الحداثة. لا تنفصل هذه المجالات عن بعضها إلا بعد أن يخلع العلمُ السلطةَ الدينية الإبستمولوجية عن مقام نفوذها. في هذه اللحظة المفصلية فقط يمكن أن ترتبط المعرفة بالتفسيرات الموضوعية والقابلة للإثبات (بصرف النظر عما نعتقده بخصوص هذه الفكرة). يرفض الإيمان هذا الربط بين المعرفة والموضوعية والتجريبية. وهذا ما يدفع فيبر، دون سوء نية من جانبه، إلى وصف الاعتقاد الديني الحديث بأنه «تضحية» صريحة بالفكر. في خضم ذلك تصير السياسة مجالا للصراع بين أنساق القيمة المتجذرة في قناعات تفتقد إلى أسس نهائية. وكما هو معلوم، يهتم كل من الدين والسياسة بالقيم، لكن الدين يدعي أيضا امتلاك الحقيقة، ويعني ذلك بأنه يجازف بانتهاك مجال المعرفة بطريقة خاصة لا تسلكها السياسة. تستند حجة جون

(138) Weber, “Science as a Vocation,” 23.

لوك John Locke الكاملة التي تؤيد التسامح مع التعددية الدينية إلى الفصل بين هاته الفضاءات الثلاثة: تكون المعرفة تجريبية، فتفسدها السلطة؛ يقوم الإيمان على صدق الجوارح والضمير؛ تستعمل السياسة سلطة الإكراه التي تعجز عن توليد الإيمان أو الصدق، ولكنها تستطيع فرض الامتثال.[139]

ومع ذلك، يرى فيبر أن التهديد الوجودي الذي يطرحه حضور موقف ديني في الأكاديمية لا يكمن فقط في استبدال العقل والإثبات بالإيمان، ولكن أيضا في استعداد الأساتذة الأكاديميين لإشباع الرغبة الشديدة للطلبة في إيجاد المعنى في عصر منزوع السحر. يعلم فيبر أن غياب المعنى الموضوعي لا يمكن أن يطاق تقريبا، ويحدد مجموعة من الإستراتيجيات لرفضه. تتحدد واحدة منها في الانسحاب المباشر إلى «الأحضان الرحبة للمؤسسات الدينية القديمة» حيث تكون الحقيقة الدينية مطلقة. وعلى الرغم من أنه لا يجد عيبا في ذلك، فإنه يشير إلى عدم ملاءمته في مجالي المعرفة والسياسة. تتحدد الاستراتيجية الأخرى في تبني الصورة الأكثر تشاؤمية في العدمية حيث تفقد الأشياء دلالتها، وتتجرد الحياة من أي هدف يوجهها. يشجب فيبر هذه الاستراتيجية لعجزها عن إدراك أنه في عصر علماني ينبغي أن يقرر الأفراد كل على حدة ما يكتسي أهمية وأن يحددوا معنى حيواتهم. هناك إمكانية أخرى تتجلى في جعل «الحياة اليومية» و«التجارب الأصيلة» دِيناً، وهي نزوع يرى

(139)Locke, *Letter Concerning Toleration,* in Locke, *Political Writings,* ed. David Wootton (London: Penguin, 1993).

فيبر أنه سائد بين شباب عصره، ويصفه على أنه «ضعف مرده عدم القدرة على مواجهة قدر العصر مواجهة مباشرة».(140) بيد أن العامل المفسد الأخطر في الفصل الدراسي يلخصه سؤال تولستوي الذي يمكن إعادة صياغته على النحو الآتي: «إن لم يكن العلم، فمن سيجيب عن السؤال الآتي: ماذا يتعين علينا أن نفعل، وكيف ينبغي أن ننظم حيواتنا؟»(141) يحمل هذا السؤال في طيِّه اليأس الذي ابتلي به العصر، ويرصد فيبر فيه حنينا إلى نبي يفتقر العديد من رفاقه الثبات وضبط النفس لمقاومته. يقول فيبر بغضب إن الطلبة الذين يسعون إلى أكثر من تعليمهم المنهج والتحليل والوقائع «يبحثون عن زعيم وليس مُعَلِّما».(142) وكل ما نستطيع فعله هو تقديم جواب يقلل من شأن هذا الحنين، بما في ذلك تفسير الكيفية التي أدت إلى نشأته. وردًّا على سؤال تولستوي الذي أعيدت صياغته بقوله:

... فقط نبي أو مخلص. وإذا لم يكن هناك وجود لأي منهما... فمن المؤكد أنكم لن تستطيعوا إجباره على الظهور إلى الوجود من خلال آلاف من الأساتذة الجامعيين الذين يظهرون في هيئة أنبياء تافهين يحظون بامتيازات أو يشغلون مناصب في الدولة، ويسندون دوره إلى أنفسهم في قاعات المحاضرات. فإذا سعيت إلى فعل ذلك، فإنك ستحقق نتيجة واحدة تتمثل في إخفاقك في أن تُبلِّغ حقيقة حاسمة ومحددة بمعناها الكامل إلى جيل الشباب. وتتحدد هذه

(140) Weber, "Science as a Vocation," 24.

(141) Weber, "Science as a Vocation," 27. Italics added.

(142) Weber, "Science as a Vocation," 24.

الحقيقة ببساطة في أن النبي الذي يتطلع العديد منهم إلى ظهوره لا وجود له.[143]

هناك تحديات قليلة في الحياة أصعب وجوديا من مواجهة مجموع القيم أو الموضوعات التي ينبغي أن نوليها عناية في هذا العالم، وهي معطاة سلفا. لذلك، هناك العديد من الاستراتيجيات لتفادي هذه الحقيقة القاسية- كالالتفات إلى الدين، أو العدمية، أو البحث عن الأصالة، أو النبي العلماني. إن المسؤولية الملقاة على عاتق هيئة التدريس، كما يقول فيبر، هي كشف حقيقة هذه الاستراتيجيات ومواجهة الطلبة بانعدام المعنى الراسخ في العالم. وبدلا من ملء ذلك الفراغ، يتعين علينا أن نعلمهم أن «الحياة تعني... تضاربا في المواقف النهائية/*الممكنة*، ومن ثم عدم القدرة على حل الصراعات القائمة بينها. وهذا ما يوجب الاختيار بينها».[144] وبصورة مخالفة للتوقع، إن الإقرار بانعدام المعنى الراسخ هو الوسيلة التي تمكن من التصدي للتأثيرات العدمية المقوِّضَة- إضفاء الطابع الروحي على المعرفة أو تسييسها.

بالإضافة إلى اليأس الذي ينتج عن فقدان المعنى ربما هناك دافع آخر وراء انتقال فيبر، في الجزء الأخير من محاضرته، من نقد الديماغوجية السياسية إلى مفهوم النبوة المزيفة بوصفه إطارا يعتمده لنقد الترويج للقيم في الفصل الدراسي. وعلى الرغم من أن السياسة

(143) Weber, "Science as a Vocation," 28.

(144) Weber, "Science as a Vocation," 27.

قد استبعدت من الخطابات الأكاديمية، هل يمكن أن تبقى التعاليم الإيتيقية ethical والأخلاقية moral ذات أهمية؟ يبيّن فيبر، على العكس من كانط وليس فقط نيتشه، أن الإيتيقا بدورها تفتقر إلى أساس نهائي ولا يمكن بلوغها بالاستدلال. في الواقع، يبدو أحيانا أن فيبر ينظر إلى مؤيدي الأنساق الإيتيقية والأخلاقية على أنهم على قدر كبير من عدم المسؤولية- ربما لأنهم أقل صراحة في المجاهرة بتحيزهم- من الأساتذة الذين يؤيدون المواقف السياسية علانية داخل الأكاديميات. إن الغرض الإيتيقي الوحيد الذي يمكن أن يكون المدرس أو الباحث الأكاديمي ذا فائدة لخدمته، كما يقول فيبر، هو مد يد العون للطالب في أن يحقق *وضوحا* [في الرؤية] بخصوص «المعنى النهائي لأفعال[هم] الخاصة.»[145] وعلى الرغم من ذلك، وبالنظر إلى عدم قابلية الحسم في القيم، فإن كل فرد مطالب بأن يقرر بنفسه ما هو صحيح وما هو خاطئ. وتكتسي هذه الوظيفة أهمية لا يستهان بها. فهذا «الالتزام المتعلق بتعزيز الوضوح وحس المسؤولية» ينطوي على إيتيقا بيداغوجية وفعل «في خدمة قوى إيتيقية [أكبر]» ما دام أنه يتيح للطلبة المعرفة والفهم اللازمين لتطوير وجهة نظرهم الإيتيقية. إن القرار نفسه ليس علميا، لكن يمكن أن تثريه التحليلات العلمية التي تصدر عن مواقف مختلفة وممكنة. يدافع فيبر هنا من جديد عن موقف يمكن أن تكون فيه القيم، التي لا تبنى على أساس نزعة فكرية، فيما تطورها هذه النزعة وتدعمها.

(145) Weber, "Science as a Vocation," 26.

عندما نجري تقييما للممنوعات التي يفرضها فيبر على العمل الأكاديمي والتدريس- التشخيص، النقد، والدعم السياسي على جهة واحدة، وتشكيل الشخصية، وتطوير قواعد للسلوك على أساس إيتيقي- من المهم أن نستحضر الدوافع التي تحرك هذه الممنوعات. فبدل استعماله للأكاديمية لمعالجة أزمات المعنى التي تؤدي إلى نشوء عدد من القوى المثيرة للاضطراب، فإنه يسعى إلى حماية الأكاديمية من تأثير هذه القوى. وعلى الرغم من أنه يمكن تحديد موقفه على أنه موقف «محافظ»، فإن ما يسعى إلى تحقيقه في النهاية هو الحفاظ على الأكاديمية من خلال حمايتها من الانتهاكات والتشوهات التي تسببها الرأسمالية، ومصالح الدولة والتسييس القاعدي، والدوافع الدينية بجميع ألوانها. وعلى الرغم من ذلك، لا ينبغي أن نخلط بين موقفه وموقف **فلهيلم فون همبولت** Wilhelm von Humboldt قبل قرن من الزمان، أو موقف الليبراليين العلمانيين المعاصرين. إن الهدف الذي يسعى فيبر إلى تحقيقه ليس هو صون جامعة هامبولت بوصفها مصدرا للثقافة القومية والأخلاقية، وليس الامتيازات والحقوق التي تتمتع بها هيئة التدريس والإدارة العاملة فيها، والتي تأخد صورة حرية أكاديمية لا تخضع للرقابة. بل إنه يسعى إلى حماية الوعد والهدف الفريدين للأكاديمية، أي تفانيها الثابت في إنتاج معرفة لا تفسدها أي سلطة أو مصلحة شخصية، وهو ما يستدعي بصورة متناقضة تقييد الوعد الذي يحدد ماهية المعرفة أو ما يمكن أن تقدمه. ويرجع ذلك إلى أنها لا توفر المعنى، أو الصدق الأخلاقي، أو النقد، أو حلولا للمشكلات الاجتماعية، أو السياسية، أو الوجودية سواء بالنسبة إلى الكلية أو الطلبة. وعلى الرغم من ذلك، عندما نفحص العالم الذي نعيش فيه،

نجد أنها تتجاوز كونها مجموعة من الحقائق الجافة. ومن دون هذا الفحص لا أمل لدينا لفهم القوى التي تتحكم بصورة مختلفة في وجودنا أو تهدده، ومن ثم إعادة توجيهها أو احتوائها من جديد. إضافة إلى ذلك، إن إنتاج المعرفة، إلى جانب التحديات والقيود التي تواجهها تقع في صلب التطور الفكري الإنساني. ولا يعد هذا التطور ضروريا فقط بالنسبة إلى الأفراد لبناء ذواتهم، ولكنه أساسي كذلك لإمكان تشكيل حيواتنا بشكل جماعي.

خاتمة

فيبر وحاضرنا

بخلاف القراءات التقليدية لمحاضراتي فيبر حول السياسة والمعرفة بوصفهما تنصان على بروتوكولات شاملة، فقد أَكَّدْتُ على مجهودات فيبر التي تقترب من أن تكون مغالية لصون المعرفة والسياسة من أوضاعهما وتأثيراتهما الحديثة المتأخرة. لقد أشرت أيضا إلى أن مقاربته لأشكال هدم الحدود التي سببتها العدمية، بما في ذلك تبخيسها للواقعة والقيمة، وتقويضها للعمق والنزاهة، وتشويشها على مفهوم الصدق الأخلاقي والسياسي الذي كان بمثابة *فارماكون* pharmakon يحمل معنيين- كبش فداء لخلق النظام، ودواء يستخلص من السم. إن الرد الإجرائي لفيبر على التأثير المدمر للعدمية كان بغرض تمييزه، وفصله، وتضييق مجاله، وعزله. تنسب العقلانية والعلمانية إلى المعرفة، وتعزى الكاريزما وروحها الدينية إلى السياسة. تجرَّد المعرفة من الشغف، أو الحكم judgement، أو الرغبة الشديدة في عالم بديل، بينما تجد السياسة في هذه العناصر قوة دافعة لها. تسعى المعرفة إلى الحقيقة، بينما تستثمر السياسة في السلطة. صارت المعرفة متخصصة، ومجردة، ومعزولة عن العالم، أما السياسة فإنها تلتفت إلى كل ما هو شامل، وواقعي زائل، وعاطفي. انتقل فيبر إلى التصدي للقوى التكنوقراطية

والبيروقراطية المتصاعدة في الحياة السياسية بالدعوة إلى إخضاع الشغف والهدف إلى ضوابط تنظيمية. وتصدى لتأثير النزعة الرومانسية في الحياة الفكرية ولتسييسها بالدعوة إلى تبني قواعد للضبط والمراقبة شبيهة بالقواعد البروتستانتية المحطمة للروح. وسعى إلى حقن السياسة بالتوق، والشجاعة والانخراط في الحياة المادية والعملية التي كان عاقدا العزم على تجريد الأكاديمية منها. كان المجال السياسي في حاجة إلى التحرر من السيطرة التي تفرضها عليه الأجهزة المتجردة من الإنسانية، بينما كان المجال الفكري في حاجة إلى التحرر من طغيان ما أسماه بالمكون الإنساني.

سعى فيبر إلى استعادة النظام والاستقرار عندما كان الانحطاط العدمي يقوض كليهما، لكن اعتراضاته أدت إلى استمرار الوضع المتأزم بطريقة أخرى. فعندما أخضع ما تبقى من القيم للآلة الطاحنة لنزع السحر عن العالم في مجال المعرفة، فقد تخلى عن إمكانية تحويل المعرفة للعالم واستبدلها بالقوة السحرية للزعامة الكاريزماتية في المجال السياسي. لقد أكد على الدراسة التجريبية للماضي والحاضر، ورفض استعمال المعرفة لتطوير التفكير النقدي أو العيش في عالم مثالي. وعمد أيضا إلى ربط المعرفة بقوى الحاضر مع الاحتفاظ فقط بالكاريزما في المجال السياسي لتمهيد الطريق لمستقبل جديد ومختلف. وقد أدت مقاربته هذه إلى قطع علاقة التربية بالتحول السياسي بمنع أوجه توافقها مع الحركات الجماهيرية، وعرقلة قدراتها على تطوير طموحاتها ومطالبها. عجزت النزعة

المحافظة في مجال واحد عن دعم وتشجيع قوى التغيير والتجديد في المجال الآخر. ومما لا شك فيه، إن الفيبرية الجديدة neo-Weberianism بقدر ما أنها أثرت في ممارسات ومناهج العلوم الاجتماعية في القرن الأخير، فقد عرقلت المجهودات الأكاديمية وانتقدتها بشدة بسبب تصديها للقوى المسؤولة عن معضلاتنا وتمردها عليها. وبقدر ما شكلت متخيلا للسياسي يتمركز حول الأفراد بوصفهم فاعلين يدورون في فلك الدولة، فقد همشت التمردات القاعدية، ونزعت مصداقيتها- الحركات الاجتماعية، الاحتجاجات، والبدائل التجريبية للمؤسسات المركزية واللاديمقراطية وغير العادلة(146). عوضا عن ذلك، تبقى المعيقات مرهونة بشكل واسع بالدوافع الاستحواذية للسوق والتكنولوجيا والزعماء والحركات المتجردة من الصفات التي أسندها فيبر إلى الزعامة الكاريزماتية، كالقيد، ونكران الذات، والمسؤولية، والالتزام بغاية أعظم من الاغتناء، والسلطة، والمصلحة الشخصية.

إن التمييزات التي أقامها فيبر وإنفاذه لها في مجال المعرفة جرَّد أيضا العلوم الاجتماعية من الوسائط الفكرية التي تفهم بها الذوات السياسية التي تتألف من مزيج مركب من الرغبات، والإحباطات، والجراح، وردود الأفعال، والمخاوف، وأشكال القلق. فقد تكون ذواتا

(146) The relentlessly pejorative characterizations of populism emerging from mainstream politicians, pundits, and scholars are an index of neo-Weberian hegemony in this regard.

إن التصنيفات الازدرائية المستمرة التي يضفيها السياسيون والمحللون والأكاديميون على مفهوم الشعبوية هي مؤشر على هيمنة المنظور الفيبري الجديد.

تحركها الدناءة، أو الرفض، أو الخضوع، أو الحقد مثلما تحركها المصلحة الشخصية، أو بنية الاعتقاد، أو التشكيل الذي تفرزه أنماط محددة من السلطة. زيادة على ذلك، يتسم تنصيص فيبر على الهدف الأكاديمي بتخليه عن تطوير جماعة المواطنين المنخرطين في الشأن السياسي بوصفه وظيفة أكاديمية وباعثا على التغيير السياسي. بدل ذلك، يترك هذا التنصيص أولئك المواطنين عرضة للهشاشة والاستغلال في بيئة ثقافية ونفسية مركبة، يتوهمون فيها أن ممارسة الاختيار تحت سيطرة قوى قهرية يعادل الحرية. وبدل ذلك، أدت بروتوكولات المعرفة عنده إلى انسحاب الأكاديمية من الانخراط الفاعل في المجتمع عندما حررت من التأثير الديني. إن العلوم الاجتماعية المتخصصة التي تؤطرها مناهج تقوم على حيادية القيمة والنماذج المثالية عند فيبر بلغت ذروتها في الحاضر بتحولها إلى نماذج رياضية وتجارب تعجز قدرتها على التوقع في مجالات ضيقة وفي سياقات زمنية قصيرة المدى عن فهم الأزمات الوجودية التي تصيب حياتنا الجمعية - أزمات المساواة العالمية والمحلية، والديمقراطية، وازدهار الإنسانية والأرض التي تسكنها. لا تشجع هذه المناهج والنماذج على مساءلة الخطابات المهيمنة التي تحدد المشكلات وتؤطرها، أو الحلول خارج الشروط والتنظيمات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. كتب ماركيوز في منتصف القرن العشرين أن صورة العلوم الاجتماعية على هذا النحو لا تسائل الوضع القائم، بل تؤكده.[147]

(147) Herbert Marcuse, *One Dimensional Man* (Boston: Beacon Press, 1964).

إن التقابل الذي أقامه فيبر بين الواقعة والقيمة، ومعالجته للقيمة بوصفها موضوعا يقترن بالقناعة الشخصية، يتجاهل أيضا كيفية اكتساب القيم للمعاني وللقدرة على الدخول في تفاعلات من خلال تداخلها مع العقلانيات والخطابات التاريخية الخاصة، وكيف يمكن، عند تفعيل هذه القيم، لأهداف ومشاريع أخرى أن تؤدي إلى تحولها. وبمنأى عن التنظيم الداخلي للقيم، فإن عمل القيم في الحياة السياسية لا تعززه فقط الممارسات الصريحة للسلطة، كما يشير إلى ذلك فيبر، بل إنها تتمظهر في مجالات مركبة للسلطة. وهذا ما يجعل الجينيالوجيات وتحليلات الخطاب أساسية بالنسبة إلى تأويل الوقائع والقيم، وهو السبب الذي يجعل «التحليل الترابطي conjunctural analysis»* كما يسميه ستيوارت هال Stuart Hall، الذي تأثر بغرامشي، ضروريا لفهم الكيفية التي تتشكل بها القيم في الثقافة السياسية. وهو السبب الذي يجعل أيضا المعايير في الفضاء السياسي لا تؤدي وظيفة مقدمات أو نتائج منطقية (كما تفعل في الفلسفة)، وهو سبب تعارض النظرية السياسية المعيارية من الصنف التحليلي الخالص مع أي أنطولوجيا حقيقية للسياسي. وهو ما يجعل «الأصولية originalism» في اليمين واليسار على حد سواء

---

* التحليل الترابطي هو طريقة لفحص التناقضات الاجتماعية، والسياسية، والثقافية في فترة محددة من الاستقرار السياسي، ولفهم الكيفية التي تجتمع بها هذه العناصر لإحداث ذلك الاستقرار، وكيف يمكن أن يسعى مشروع سياسي بديل لإنتاج استقرار مختلف عن طريق أشكال مختلفة من الترابطات.

Interpreting the crisis: Doreen Massey and Stuart Hall discuss ways of understanding the current crisis

لا تعدو كونها على الدوام مناورة سياسية من نوع آخر، والشكاوى من استيلاء الخصوم على المبادئ التي يعتز بها أو استعمالهم لها كأسلحة تنم عن سذاجة وعجز.

على سبيل المثال، تقدم الليبرالية من حيث المبدأ وعودا بحماية شاملة ومتساوية للكرامة والحرية الإنسانية. في الواقع، تُقوَّض هذه الوعود بالتداخل العميق لليبرالية مع بنى السلطة التي ترعى الطبقية، والأنساق الطائفية، والاستعمار، والعرق، والجندرية. ومنذ عهد قريب صار التزام الليبرالية بهذه المبادئ تتصدى له أشكال الدعم الضمني للتدرج الهرمي واللامساواة في نسختها النيوليبرالية، والبنى المعادية للأجانب في نسختها القومية الإثنية. إن تفسير الليبرالية للحرية، مثله مثل مفهوم المساواة الاشتراكية، لا يحوز أي إطار عملي خالص ولا يتعدى البحث الذي يجريه الفيلسوف، ولم يُستغل أو «يوظف كسلاح» من طرف أحزاب اليمين للتلويح بشعارات حرية التعبير كغطاء لإضفاء الشرعية على حشود [منظمة] الكلان [العنصرية]، أو من طرف الشركات للسيطرة على الديمقراطية الانتخابية، أو من قبل التنظيمات الإنجيلية لتقويض المساواة الجنسية والجندرية. من المؤكد أن هذه المناورات تبقى مدروسة واستراتيجية، لكنها لا تخرج عن الحدود التي تضعها الليبرالية، بل وتتناسب بشكل مريح مع التاريخ الطويل للِّيبرالية وتلقى منه الدعم بوصفه تاريخا يتسم برفض الاعتراف بالقوى الاجتماعية، وتستمد الدعم أيضا من رفض الليبرالية الجديدة

للتشريع الديمقراطي لصالح مجتمع تحكمه القوانين الأخلاقية التقليدية وقوى السوق. في الوقت نفسه، توجه هذه التطورات الثقافةَ السياسية الليبرالية إلى مسار خاص يتماشى مع النزعة التسلطية السياسية. وبما أننا نعجز عن التفكير بوضوح في حرية التعبير في الحاضر بمعزل عن قوى وسائل الإعلام الاجتماعية المعاصرة، أو القوى الاجتماعية السائدة المستنفَرة، فلن نتمكن من فهم الليبرالية بصورة أعم دون الإقرار بالتأثيرات التي تمارسها التشكيلات المرتبطة بحكومة الأثرياء، والمعادية للأجانب، والقومية، والتسلطية، وكذلك التشكيلات المالية والنيوليبرالية المعادية للديمقراطية والتي تحدد شكل ومضمون الليبرالية. وإذا كان إدراك فيبر العميق للكيفية التي تتحول بها العقلانيات إلى قوى، والوسائل الداعمة للحرية إلى أنظمة للسيطرة يضيف قيمة لهذا الصنف من العمل، فإن التفكير الذي تحكمه التقاطعات- بين عناصر متباينة وتشكيلات متغايرة على ما يبدو- والتفكير الجينيالوجي- لفهم التعديلات التاريخية التي تمس التطبيقات العملية للمثل العليا، أو القيم، أو المبادئ- يصير صعبا بسبب العقم الإبستيمولوجي والأنطولوجي وكذلك المناهج عند فيبر.

يذكرنا هذا المثال بأن المقاربة ما بعد العدمية للقيم، في مجالي المعرفة والسياسة، لا تتطلب فقط إدراك افتقارها للأسس، أو الفجوة القائمة بين الأهداف والنتائج، أو تأثيرها العاطفي، على الرغم من أنها مظاهر مهمة. بل إن الممارسات ما بعد العدمية، السياسية منها

والفكرية، تقتضي فهما للكيفية التي تتداخل بها المجهودات السياسية والفكرية مع صور خاصة من العقل المتحكم وتقنيات السلطة، وفهم تقاطعها مع قوى وممارساتٍ تتجاوز ما نركز عليه نحن. بمعنى آخر، يتعين أن نضع في حسباننا العوامل السياقية التي تحيط بهذه المجهودات، والتي لا يبدو جليا أنها تشكل جزءا من لغتها أو هدفها. ينبغي أن نطبق ما سعى فيبر إلى الإحاطة به من خلال فهمه للسياسة بوصفها مجالا للفعل، ولعدم قابلية التوقع، وللنتائج غير المدروسة، ومن خلال تطويره لإتيقا المسؤولية بصورة تتماشى مع ذلك المجال في النظرية السياسية والاجتماعية كذلك. فإذا كانت السياسة فضاء غير ملائم لنشر المبادئ الخالصة، طالما أن نشرها لا يلتفت إلى تحقيق هذه المبادئ من خلال السياقات التاريخية، والقوى، والآثار التي يخلفها الفعل الذي يتجاوز السياسة، فإن الأمر نفسه ينطبق على التفكير والتحليل الأكاديميين والسياسيين.

من المؤكد أن فيبر محق بخصوص إلزام الكلية بتدريس الوقائع للطلبة، بما في ذلك «الوقائع المزعجة» - تلك التي تتصدى للسرديات الموروثة، أو القناعات الراسخة. لكن ينبغي أيضا أن ندرس الطلبة حول الوقائعية، أي كيف تنشأ الوقائع، وكيف تكتسب الشرعية بما هي وقائع. وينبغي أن نعرض عليهم التعقيدات والنظريات المتعارضة المرتبطة بكيفية بناء الوقائع وتأويلها، وأبعادها التاريخية، والاجتماعية، والخطابية، والهرمينوطيقية، وعدم قابلية عزلها عن بعضها البعض وافتقارها إلى المعنى الراسخ فيها. في

عصر يتسم بالانتشار الواسع للتشويش والخداع بخصوص الوقائع، والعلم، والحقيقة، هل هناك ما هو أهم من إشراك الطلبة في دراسة كيفية تشكل هذه البناءات أو تحصينها أو ضرب استقرارها، أو استبدالها؟ وبغض النظر عن كونها خطيرة، فإن فهم البناءات والمواضعات الإنسانية في هذا الإطار يعد عنصرا أساسيا لتعليم المواطنين والأكاديميين على حد سواء.

يصيب فيبر أيضا بتأكيده على أن الكلية ملزمة بمساعدة الطلبة على فهم السبب الذي يجعل أنساق القيمة لا تكون دائما صادقة. غير أنه بدلا من وضع حد لعمليتي التحليل والحكم، أو الدفع بنا من غير هدى إلى النسبية، يزيد هذا الوضع من أهمية، وبالفعل من استعجالية، فحص القيم واتخاذ القرار بشأنها- ما ينبغي تأكيده، أو الاعتراض عليه، أو ما ينبغي السعي إلى تحقيقه في العالم. في الوقت نفسه، يعلي هذا الوضع من شأن فهم المصادر المركبة التي تؤدي إلى تشكيل القيم والتعلق بها، والأسباب الكامنة وراء استنزاف القيم، ونشأة العدمية التي تستتبع ذلك. كما أنه يؤكد على أهمية فهم الأسباب التي تجعل سلسلة القيم المترابطة قوية في الآن نفسه.

يعد فيبر محقا أيضا باستدعائه لوعي الذات والحذر عندما يتعلق الأمر بتصوراتنا السياسية الخاصة، والحد من عرضها في الفصل الدراسي، وإن كان تحقيق ذلك يتعذر على النحو الذي دعا إليه. ويرجع ذلك إلى أنه سواء كنا نناقش كانط أو التطور، التغير المناخي أو الإبادة الجماعية، المساواة بين الجنسين أو الدستور، فلا وجود على

الإطلاق لوقائع أو نصوص تتموضع بمعزل عن التأويلات التي تتناولها. وتعد هذه التأويلات، أيضا، ثقافية وتاريخية، وليست فقط ذاتية، وتمارس عبر لغة الكشف أو الحجب، وتحديد السياق أو التأكيد، كما نتوفر على عدد من المعايير، تتألف من الإثبات، والحجة الوجيهة، والمسؤولية، التي تستعمل لفحص هذه التأويلات، وإن كانت لا تؤدي إلى إيجاد حل نهائي لها. وهو محق أيضا في التعبير عن قلقه من شخصية المدرس التي تطغى على تدريس الطلبة طرق البحث والتفكير. فالشخصيات لا تتمظهر أو تختفي إراديا، ولذلك يستحيل إخضاعها بصورة نهائية، لكن يمكن تكملتها بإضافةٍ فكرة مهمةٍ عند سقراط. فبدلا من استبعاد الكاريزما الشخصية لدى الأستاذ أو ما يسميها سقراط الارتباط العاطفي الذي ينمي الرغبة في الحكمة لدى الطالب، يقدم سقراط أخلاقيات الكبح والمسؤولية، وهي نفس الأخلاقيات التي بحث عنها فيبر في الفعل السياسي. وهكذا تتلاشى الحدود الصارمة بين الفضاءين. يصيب فيبر في إقراره بمزايا التخصص الأكاديمي، وكذلك حتميته. بيد أننا حاليا ندرك قيمة تحرير المعرفة من بعض الأقسام التخصصية، والقيود المنهجية التي تنظمها، مع الاحتفاظ بقيمة التخصص الأكاديمي نفسه.

ليس الغرض مما قلناه هو تصحيح فيبر، وهو ما سيبدو غريبا بل وحتى مجهودا أكاديميا لا جدوى منه. وكما أشرت في المقدمة، يمكن أن يساعدنا فيبر في العثور على وجهتنا، أو على الأقل أن يعيننا بعض

الشيء على مواجهة التحديات. فعندما يقر فيبر، مثلا، أن المعرفة والسياسة متداخلان مع بعضهما البعض، فإنه يذكرنا بالأسباب التي تدعو إلى ترك مسافة فاصلة بين الفضاء السياسي (والسياسي-الاقتصادي) والفضاء الأكاديمي لكي لا يتم التشويش عليهما أو الخلط بينهما. إن التحليل الأكاديمي، والاستكشاف، والنقد، والتفكير هي عناصر أساسية تختلف عن الفعل السياسي، والتشريع، والبيانات التي تصدر عن السلطة: إنها تعبئ ذواتا وذاتيات مختلفة؛ وتستند إلى لغات وإطارات زمنية، وأهداف، وأخلاقيات متعددة؛ إنها تحوز متطلبات مختلفة لإظهار إمكاناتها. لهذا السبب، ينبغي التصدي للدعوات المطالبة بانحياز المنهاج الدراسي إلى أي برنامج سياسي- سواء كان برنامجا يمينيا أو يساريا، علمانيا أو دينيا- بمناقشة الكيفية التي يفسد بها هذا الدمج كلا الفضاءين. فبالإضافة إلى استبعاد البرامج السياسية والمقاربة الديداكتيكية التلقينية من المناهج، يتطلب العمل الأكاديمي في حاضرنا حمايته من استثمار الكيانات النافذة فيه أو شرائها له، ومن تقييمه فقط بناء على المنفعة التجارية التي يجلبها، أو بغرض توظيفه في التدريب المهني، وحمايته أيضا من التبخيس الذي يمارسه أعداء الديمقراطية للإبقاء على الجماهير غبية يسهل التلاعب بها. إن إحدى اللحظات التي لا تنسى في قافلة الحملة الانتخابية التي كان يقودها ترامب عام 2016 هي صرخته الجياشة والتلقائية «أحب المتعلمين ضعاف المستوى».(148)

(148) Libby Nelson, "The Strangest Line from Donald Trump's Victory Speech: 'I Love the Poorly Educated,' " *Vox*, February 24, 2016,

عندما بالغ فيبر في طرح التعارض والتباعد بين الجامعات والسياسة، فقد ساعدنا في فهم كيف يمكن أن تكون الوعود التي يقدمها كل مجال منهما عرضة للتهديد في عصر يعرف انهيارا عدميا للحدود. إن الحفاظ على المجال الأكاديمي بهدف صون استقلالية ونزاهة الفكر النسبيتين، وهو في الواقع صون لفعل التفكير نفسه، يعني مقاومة التسييس المفرط للمعرفة ولتنظيمها بناء على علاقات تقوم على التبعية السياسية والاقتصادية- سواء كان مصدر ذلك هو الدولة، أو الاقتصاد، أو حب الخير للإنسانية. إن الحفاظ على المجال السياسي كمجال للصراع حول القيم يعني مقاومة العقلنة وإغراءات كل من سياسة القوة وسياسة الفضيلة. ويتطلب ذلك إحياء الأهمية التي تحظى بها القيم في مواجهة الانحطاط العدمي. يكتسي التصدي للعدمية في كلا المجالين دورا حاسما، بيد أن الخلط بينهما يعني خسارة المعركة قبل أوانها.

وعلى الرغم من أن العالم يواجه وضعا طارئا، وقد نحتاج لمعالجته إلى تظافر جهود جميع الأكاديميين، فمن الضروري أن نقيم فصلا واضحا بين الحياة الأكاديمية والحياة السياسية. ويعد هذا الفصل أساسيا لحماية التفكير العميق، والقدرة على الإبداع، والمسؤولية عند إنتاج المعرفة وتقاسمها[149]. ويعد ضروريا لتحصين فهم الوقائعية

---

https://www.vox.com/2016/2/24/11107788/donald-trump-poorly-educated.

(149) من الضروري تفادي ما يحدده فيبر على أنه خطأ يرتبط بالخلط بين المفاهيم الفكرية وما أسماه «تكثيف وفوضى الواقع.»

وممارستها لمواجهة اللامبالاة الذي تسفر عنها العدمية، مع الالتزام بالطابع المركب لتشكيل المعرفة. ويقيم هذا الفصل أيضا تمييزا بين الفضاء الذي يقع فيه الصراع على القيم والفضاء الذي تخضع فيه للمساءلة، والتحليل، والشك، والتفكيك، وإعادة النظر. وبتعبير آخر، وكما وضح ذلك ستيوارت هال عند مناقشته للفرق القائم بين النظرية والسياسة، يؤدي هذا الفصل إلى تمييز المجال النظري حيث نفحص بناء الوقائع، ونحلل السرديات، ونستكشف التحول الراسخ في المعنى، عن المجال السياسي حيث نسعى إلى بناء سرديات مهيمنة، وكبح التحول الذي يعرفه المعنى. إن عبارات من قبيل السكن حق إنساني، وتحوز الأشجار صفة قانونية، ولا يوجد إنسان لا يحوز صفة قانونية، والعلم واقعي، وإلغاء دولة الأَسْر carceral state، وهذه الأرض مسروقة، والحب ينشئ أسرة، هي ادعاءات لا يمكن إخضاعها للفحص الدقيق خلال المعارك السياسية، بل يتعين سبرها ومساءلتها بمعية الاعتراضات التي تتصدى لها بالتحليل الأكاديمي وفي الفصل الدراسي.

من المؤكد أن المجهودات الأكاديمية التي تشتمل على التحليل النظري والنقد يمكن أن توجه الصراعات السياسية وتساعد على تطوير إمكاناتها أو أن تكشف عن مكامن ضعفها. إن التعقيدات التي تحيط بالإجماع، والاستقلالية، الاختيار؛ والدلالات الغامضة للشركات ومفهوم الشخص في شموليته personhood؛ والتعقيد الذي يلازم ادعاءات السيادة، والوظائف الغامضة لمبادئ حقوق

الإنسان؛ وإخفاقات الديمقراطية الدستورية والمفارقات التي تتخبط فيها؛ وعدم استقرار الهويات العرقية والجندرية هي اعتبارات يمكن أن يساعد التفكير فيها على بناء مشاريع سياسية وتنقيح المواقف السياسية. بيد أن ذلك لا يعني أنه يمكن عرضها خلال الحملات السياسية، أو أنه ينبغي إقحامها فيها. وكما أنه لا شيء يقوض العمل الفكري الجاد أكثر من أن يكون محكوما ببرنامج سياسي (سواء كان برنامجا تفرضه الدولة أو الشركات أو الحركات الثورية)، فإنَّهُ لا شيء غير ملائم لحملة سياسية أكثر من التفكير الانعكاسي، والنقد، والتصحيح الذاتي self-correction بصورة غير متناهية على النحو الذي يتطلبه البحث الأكاديمي. لا يتعلق الأمر بكوننا «غارقين في التفكير في التفاصيل»، بل إنه على صلة بالاختلافات العميقة بين الفضاء الذي تتحقق فيه المعرفة عن طريق دراسة المعنى ومظاهره المركبة، والفضاء الذي يتحقق فيه الهدف السياسي من خلال تحديد المعنى وتقليص درجة تعقيده. ينبغي أن يقبل الأكاديميون والطلبة بالتحديات البناءة التي تعترض افتراضاتهم وبديهياتهم، ويتعين عليهم كذلك أن يكونوا مستعدين أحيانا للدخول في حالة من عدم اليقين والحيرة. وينبغي، من ناحية أخرى، أن يبقى الفاعلون السياسيون أهل عزم، ومركزين على أهدافهم، ومحصنين لها. فلا ينبغي انتقاد أي نشاط بسبب عدم قابلية تطبيقه في مجال آخر (كما يفعل أولئك الذين يرفضون النزعة الفكرية)، ولا ينبغي أيضا إخضاعه للطبيعة الجوهرية للآخر ولمتطلباته.

ليس الغرض من هذا الموجز تأييد المعرفة المبهمة أو المفكرين الذين يقبعون في أبراجهم العاجية ويتجردون من أدنى حس بالمسؤولية أو غير المبالين بالعالم الذي نعيش فيه. عوضا عن ذلك، إن الفكرة ببساطة هي أن التمييز الذي أقامه فيبر بين ملاحقة القيمة التي يتم التنصيص عليها بوصفها هدفا، وإخضاع هذه القيمة للفحص الفكري الصارم يعد أكثر أهمية من التمييز الذي أقامه بين الواقعة والقيمة لفصل الحياة الأكاديمية عن الحياة السياسية. وبالفعل يمكن أن يتصدى التمييز الأول للتمييز الثاني طالما أن التصنيف الصارم الذي وضعه فيبر للإبستمولوجيا والمنهج ينبغي، بناء على تفسيره، أن يكون متاحا للنقاش، وأن يسمح بناء على ذلك للقيم بأن تنشأ أثناء إنتاج المعرفة.

من المؤكد أن العلاقات القائمة بين المجال الأكاديمي والمجال السياسي تكتسي أهمية مماثلة للتمييز الذي سبق أن تناولناه. ويصدق ذلك بالتحديد على الديمقراطية، التي لا يمكنها أن تستمر بوجود مواطنين غير متعلمين. في الواقع، إن تقويض الولوج إلى تعليم عال عمومي ذي جودة، وتبخيس قيمة الكلية فيما عدا التدريب المهني، هي استراتيجيات يستخف بها، توظف في الهجوم النيوليبرالي واليميني المشترك على ديمقراطية العقود الأربعة الأخيرة. في خضم هذا الوضع المتدهور إن معاداة النزعة الفكرية التي تشكك في مصداقية التعليم تستنزف القدرات التي تنطوي عليها المواطنة الديمقراطية، وتجعل المواطنين عرضة للتلاعب. بالإضافة إلى ذلك،

إن إضفاء الطابعين التخصصي والمهني على العمل الأكاديمي، واستبدال الدعم العام للبحث بالدعم الخاص له، والضغوطات النيوليبرالية التي تمارس على الجامعات لتحقيق نتائج سوقية آنية قد حولت مجتمعة مسار البحث والتدريس عن أهدافه العامة والكونية طالما أن الأزمات التي نعيشها تحديدا في عصرنا تستدعي مقاربة عكسية.

وبالنظر إلى هذه السياقات التاريخية الحديثة جدا، يبدو أننا كنا مؤخرا مستغرقين أكثر مما ينبغي في قضايا تتصل بالحرية الأكاديمية، بينما لم نلتفت إلا لماما إلى القضايا المرتبطة بالمسؤولية الأكاديمية. تعد قضايا الحرية الأكاديمية على قدر كبير من الأهمية، بالنظر تحديدا إلى الحملات التي يقودها الجناح اليميني القوي لضبط المناهج والبيداغوجيات. لكن هل يمكن للمسؤولية الأكاديمية أن تتناول بصورة أكثر عمقا وشمولية مستقبلنا الجمعي المعرض للخطر؟ من الممكن أن يكون أبرز سؤال يواجه المجتمع الأكاديمي في حاضرنا ليس هو «ما هي الحقوق التي نملكها للتعبير قولا وفعلا داخل الفصل الدراسي وخارجه؟»، بل هو «ماهي المناهج والبيداغوجيات التي تسهم في تعليم المواطنين وتقويتهم في هذه الأزمنة؟»، وكيف ننشئ مواطنين عارفين وقادرين على التفكير داخل تعليم جامعي يحوز إطارا زمنيا ومكانيا محدودا ومتوترا، لاسيما مع وجود العديد من الالتزامات الأخرى الملقاة على عاتق الطلبة في عصرنا الحاضر؟ هل ينبغي لنا أن نعيد النظر في هامش الحرية الواسع الممنوح لغالبية

الطلاب الجامعيين لاختيار المواد التي يرغبون في دراستها أو التي يعترضون عليها؟ ما الاستراتيجيات البيداغوجية، والنصوص، والموضوعات، والمناقشات التي يمكن أن تساعد على توجيه الطلاب بعيدا عن المواقف والاعتقادات السياسية الشخصية الانعكاسية التي انجروا إليها، ولتحفيز التفكير المتأني حول القوى والمسارات الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية، والإيكولوجية واسعة النطاق التي تشكل الحاضر والمستقبل القريب؟ كيف يمكننا إنهاء العزل، وإيقاف إضفاء الطابع المهني، والطابع الأداتي الذين تتعرض لهم المعرفة والتي تجعل المعرفة الأكاديمية بصورة مفرطة منفصلة عن العالم الواقعي؟ وكيف نعين الطلبة، والكلية، والإداريين على حد سواء على التخلص من الانشغال بتطوير رأس المال الشخصي والمؤسساتي الذي يبقيهم أوفياء لهذا العزل، ولإضفاء الطابع المهني، والطابع الأداتي؟

وبدلا من انصراف هذا العمل عن القيم داخل الفصل الدراسي، يعد التفاته المتأني إليها مكملا له. لا أقصد من ذلك الدفاع عن قيم بعينها. على العكس من ذلك، إن الفصول الدراسية هي فضاءات يمكن أن تُدَرَّسَ فيها القيم بوصفها ليست فقط أراء، أو إيديولوجيات، أو ولاءات حزبية أو دينية. ينبغي أن تفهم أيضا على أنها تتجاوز كونها مصدرا للتشويش على القضايا التجريبية، أو التقنية، أو الأداتية، أو العملية. إن الفصل الدراسي هو ذلك الفضاء الذي يمكن فيه ترسيخ القيم بوصفها رؤى للعالم (أو الإقرار بأنها

عاجزة عن تحقيق ذلك الإمكان)، ولتحليلها تحليلا تاريخيا ونظريا، ولدراستها في سياقات القوى الخاصة التي تعبئها وتحولها. وهو فضاء لفحصها جينيالوجيا، وثقافيا، واقتصاديا، ونفسيا- بوصفها مثلا تشكيلات تتألف من ردود أفعال مركبة أو بقايا لاهوتية. وهو أيضا فضاء يمكن أن نعثر فيه على القيم كامنة في قوى تنكرها أو تقدسها بحيادية أو موضوعية زائفة، سواء كانت هذه القوى تكنوقراطية، أو خوارزميات، أو أسواقا، أو محاكم قانونية. والأهم من ذلك كله، إنه فضاء بإمكان المدرسين الذين يتمتعون بحس المسؤولية أن يقدموا فيه القيم بوصفها تفتقر إلى الأسس، ولكنها بالغة الأهمية لفهم الأزمات المتعددة في عصرنا والتفاعل معها. تشكل مقاربة القيم على هذا النحو تصديا حاسما لعصر عدمي تبخس فيه القيم وتصير فيه مجرد أدوات؛ ولعصرٍ سياسي تفهم خلاله بوصفها قيما تحتكرها زمرة من المتدينين في أحزاب اليمين أو الأخلاق العلمانية في اليسار، ولمقاومة عصر رأسمالي تعبأ فيه القيم للرفع من الأسهم المالية للسوق؛ وجبهة لصد عصر تكنوقراطي تقبر فيه القيم في المنصات والتطبيقات الإلكترونية؛ ولمواجهة عصر علماني ليبرالي صارت فيه القيم تكتسي طابعا شخصيا وفرديا. وتتسم إعادة مركزة دراسة القيم في التعليم العالي أيضا بمقاومة الضغط المستمر على الجامعات، لاسيما العمومية منها، لإعطاء الأولوية للتدريب المهني، ولمجالات العلم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات STEM على غيرها من المجالات. وهي أولوية تهدد بشكل خطير الفضاء المتبقي الأكثر أهمية لتحقيق تفكير عميق وملم

بقضايا العالم، ولا يمكنها أن تتحقق في لحظة تاريخية تعرف اضطرابا متزايدا.

إذا كان فيبر قلقا من الجدالات العنيفة التي تحدث في الفصول الدراسية، والتي تهدد شروط التعلم الموضوعي والتفكير المتأني، فإنها نادرا ما تطرح تهديدا جديا أكبر لنزاهة الفصل الدراسي في الحاضر. وعلى الرغم من الاهتمام الذي يحيطها به الجناح اليميني ووسائل الإعلام السائدة، فإن قضايا من قبيل إثارة القلاقل، والرقابة censoring أو التكميم ليست واسعة الانتشار أو تحوز أهمية خارج المجال المحدود لمؤسسات النخبة. على العكس من ذلك، من العوامل الشائعة بين الطلبة التي تثنيهم عن الجدية الفكرية هي تشبعهم بالتبخيس الثقافي والسياسي للحياة الفكرية الممزوج بشعورهم بالقلق تجاه مستقبلهم الفردي، والذي يتمظهر في انشغالهم بمعايير التقييم وتقنياته لاستيفاء الشروط المطلوبة بأقل جهد.[150] ويواجه طلبة الجامعات المعاصرة أيضا الآثار المدمرة لوعي مجزأ سائد بينهم لم يسبق له مثيل. من ناحية، لقد تَمَثَّل أغلبهم التوجيه النيوليبرالي لحساب وقياس جميع مشاريعهم التربوية، والاجتماعية، والمدنية، والشخصية بتكريسهم لقيمة رأس ماهم

(150) في ارتباط بالاعتماد المتزايد على جوجل في «البحث» بجميع أصنافه والازدراء الذي تواجهه المعرفة العقلية لصالح المعرفة التقنية، فليس غريبا أن نجد توقعات الطلاب في الفصول الدراسية قد بلغت أدنى مستوياتها على مر التاريخ، وأن السؤال «هل تستحق الجامعة هذا العناء؟» تتم الإجابة عليه حصرا بمعطيات حول «المكسب الجامعي»، الذي يشير إلى المداخيل المتزايدة المتوقعة مدى الحياة التي يتمكن الطالب من جنيها بشهادته الجامعية.

البشري لتحقيق ما يطمحون إليه. ومن ناحية أخرى، إن أغلبهم في حالة تأهب للكوارث البيئية، والسياسية، والاقتصادية العالمية التي تلوح في الأفق، والتي تجعل العالم الذي يكرسون هذه القيمة لأجله يوشك على الأرجح أن يسقط في أزمة لا مخرج منها.[151] لم يسبق لأي جيل أن واجه انعدام مستقبل جمعي خاص به مواجهة مباشرة وهو يدبر مثل هذه المتطلبات الصعبة والمركبة لبناء مستقبله الشخصي والآني. تتجاوز هذه المعضلة كونها مجرد «تفاؤل قاس cruel optimism» لتؤكد أنها تفوق قدرة العديد من الطاقات الشابة لإجبارها لهم أساسا على التركيز فقط على التقدم التدريجي بعقلية مقاولاتية، كما لو أن تقدمهم هذا لا يقودهم إلى كارثة. طور ملفك المهني، وحسن شبكات علاقاتك، اعثر على شريك حياتك... لكن أيضا وفر المال لشراء منزل مكلف وللحصول على تقاعد بعيد المنال، وضع برنامجا تحسبا لنهاية الديمقراطية ولكوكب لن يكون صالحا للحياة. يعيش معظم الشباب في نمط من البقائية survivalism التي تسبق نهاية العالم، وهو شعور نتقاسمه إلى حد ما جميعا.

من بين الطرق التي يمكننا اعتمادها لمعالجة هذه المعضلة هي الإقرار بوجودها وكشفها عن طريق أسئلة ما بعد عدمية مقصودة توجه للطلبة:

(151) Sarah Kaplan and Emily Guskin, "Most American Teens Are Frightened by Climate Change, Poll Finds, and About 1 in 4 Are Taking Action," *Washington Post*, September 16, 2019.

«أي عالم تريدون العيش فيه؟»

«كيف يمكن للبشرية أن تحدد توافقاتنا المشتركة في هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ العالم؟»

«ما هي قائمة القيم التي ينبغي أن تنظم وجودنا- التنمية المستدامة؟ الحرية؟ (أي صنف منها)؟ التسامح المتبادل أم الاعتراف بالاختلاف؟ المساواة؟ (أي صنف منها) الأُسر أم القرابات البديلة؟ (وأي نوع منها؟) العمل المجدي أم إلغاء العمل؟ هل ينبغي حماية الدين أم التقليل من قيمته؟ المؤسسات العالمية أم المحلية؟»

«كيف أنتجت القوى والتقنيات التي اخترعها البشر وأطلق لها العنان طرق خاصة لتحديد معنى الوجود الإنساني ولاستعمار الأرض وتدميرها؟ كيف يمكننا مواجهة المخاوف واليأس التي يفرزها وضعنا الحالي دون الخضوع لها؟ ما الذي نحتاج إلى معرفته والتفكير فيه، ومن ثم إلى دراسته، لكي نجيب على هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة المرتبطة بها بطريقة شاملة وعميقة؟»

تحوز التحليلات التجريبية (كيفية انتظام الأشياء وعملها حاليا) بالإضافة إلى التحليلات التاريخية والمادية (مجموع القوى التي قادتنا إلى الوضع الحالي والسلط التي تنظمه) دورا أساسيا في صوغ هذه الأسئلة. يضطلع علم النفس، وعلم الاجتماع، والاقتصاد السياسي بدور مهم في تطويرها وتعقيدها. كما تعد الأنماط الثقافية، والنظرية، والفلسفية، والفنية التي تختص بتمثيل العالم وتأويله ضرورية لمعالجتها بالإضافة إلى التعلمات الأساسية في العلم، والتكنولوجيا،

وفلسفة العلم. في الواقع، يمكن أن تتناول جميع الأجزاء المكونة للمنهاج الجامعي هذه الأسئلة، على الرغم من أن المدارس المهنية، والمسالك ما قبل المهنية قد تحتاج إلى المزيد من المساعدة والتشجيع كي تلتفت إليها.

بالطبع، ينبغي ألا نتوقع من الطلبة تقديم أجوبة على هذه الأسئلة، بل يتعين حثهم، بدل ذلك، على طرحها، ومساعدتهم على فحصها. ينبغي أن تركز البيداغوجيا التي ننهجها على توضيح النتائج التي تترتب عن تطويرها وتعميقها، وعلى ما يؤمن طرقا ذكية لمعالجتها ويحفزها، وعلى كيفية ارتباطها بالأزمات التي يتخبط فيها المعنى، والفاعلية المؤثرة، والشعور بالمستقبل الذي يعيشه أغلب الشباب. وعلى هذا النحو لن نعمل فقط على معالجة القلق الذي يشعر به الطلبة عوضا عن إحالته على صناعة الخدمات الاستشارية المتنامية في الجامعة، بل سنعرفهم بالممارسات الأساسية المرتبطة بالمواطنة الرصينة. فبالإضافة إلى تزويد الطلاب بالمعارف الوقائعية الضرورية لفهم العالم، سنسعى إلى إحاطتهم بالنتائج المترتبة عن تشكيل مواقف قيمية عميقة والتي تعد ضرورية لبناء حيواتهم الخاصة، وليكونوا مشاركين أذكياء في الديمقراطيات، ولتجنب تشربهم بنظام القيم المهيمنة القائم، أو القيم السطحية والمفرطة في الاستقطاب، كما لو كان هذا النظام واقعا لا مناص منه. وبنفس القدر من الأهمية، إن توجيه بعض مظاهر المنهاج والتدريس التي نعتمدها على هذا النحو يمكن أن يساعد على نزع الطابع الحاد

والمعادي لما هو فكري في الأكاديمية المسيسة في عصرنا الحاضر. وستقدم بدل ذلك المزيد من الممارسات المنتجة والفكرية التي تسعى إلى الربط بين الحياة الأكاديمية والحياة السياسية. تتماشى هذه المقاربة مع حجة فيبر التي يدافع من خلالها عن «تشجيع الوضوح وحس المسؤولية» لدى الطلبة، وتحقق شيئين لم يستطع برنامجه بلوغهما: من ناحية، إنها تسعى إلى جعلهم أكثر خبرة وإلى حثهم على الانخراط في العالم، كما يجدونه، وكما يتصورونه بصورة مختلفة؛ ومن ناحية أخرى، تتناول هذه المقاربة القيم بوصفها عناصر للتعلم حول العالم كما هو موجود يتعذر استئصالها، أي كما هي متضمنة فيما يعتبره عالما وقائعيا. وفي كلتا الحالتين ستكون هذه المقاربة مصدر إزعاج للوضعية positivism.

ينبغي أن يكون واضحا أن الغرض من هذه الحجة ليس هو موضعة السؤال، «ما الذي ينبغي فعله؟» في قلب المناهج الجامعية. وبوصفها تصورا يقوض مكانة القيم ولا يعلي من شأنها، فإنها ليست كذلك توجيها يؤيد «التسامح مع جميع وجهات النظر» في الفصل الدراسي. ويرجع ذلك إلى أنها تتناول «وجهات النظر» بوصفها ممتلكات شخصية شبيهة بالممتلكات العينية وليست وجهات نظر لها تبعات ترتبط بمفهوم السلطة. إن العمل على تطوير مدح فيبر لاستبدال هذا التسامح بفحص جريء، ومن ثم بتجريد للقيم من طابعها الشخصي، يشتمل في الحاضر على مساعدة الطلاب على فهم أن الأسباب التي تجعل ادعاءات العدالة والقيم التي يتم تصورها

من منظور شخصي بوصفها راسخة في الجوهر الإنساني هي في الآن نفسه آثار لليبرالية الجديدة وعلامات دالة على هدر عدمي للعالم، وأزمة رغبة. وتقتضي معالجة هذه القضايا كشفا عميقا يتسم بالتفهم إذا كنا نسعى إلى إثارة فضول الطلاب لفهم مصادر ادعاءاتهم السياسية والنتائج التي تترتب عنها، وحثهم على الاهتمام بأنماط أخرى للتفكير والهوية والهدف السياسيين.

إن التحليل الجريء والنقدي للقيم، والتفكير في المعارف الضرورية لتشكيلها بذكاء، وتحديد أهميتها بالنسبة إلى الحرية والمستقبل الفرديين والجماعيين- هي مبادئ نادرا ما يتم الاستناد إليها في إعداد المناهج الجامعية في وقتنا الحاضر. وبغض النظر عن الضغط السائد لتحويل جميع المؤسسات إلى مسارات مهنية باستثناء المؤسسات النخبوية، فإن المناهج اللامعيارية المزعومة في العلوم الاجتماعية السائدة، حيث تتم معالجة القيم بوصفها دخيلة لا تحوز صفة قانونية، تعيق بفعالية هذه الانشغالات والمقاربات في الفصول الدراسية والتدريبات الخاصة بالعلوم الاجتماعية. ويتفاقم هذا الوضع في أغلب المقاربات التي تدرس السلوك الاجتماعي والسياسي، وأيضا في الفلسفة السائدة، حيث ترد القيم إلى معايير، والمعايير إلى آراء، والآراء إلى مواقف قابلة للملاحظة.[152] لقد صار

(152) يفيد العمل الأكاديمي المسؤول في العلوم الاجتماعية اليوم من غير ريب التقصي حول الكيفية التي وصلنا بها إلى حالة الطوارئ الراهنة، وأن نكون قادرين على استحضار بدائل ذكية، ومجدية، وقابلة للتطبيق. ومن دون هذا سنكون على وجه التحديد مصدر إحباط للطلاب الذين يلتفتون إلى العلوم الاجتماعية وهم يحملون أملا معقولا في أن هذه الفروع المعرفية ستساعدهم على فهم المشكلات المعاصرة

الطلبة أنفسهم يتوقعون من أساتذتهم تقديم «المعلومات» (على شكل نقاط مقتضبة)، وقد أصبح العدد الكبير من الأسئلة التي لا يجدون أجوبة لها في الفصل الدراسي يثير أعصابهم. ويتجه مفهوم «انحياز» المدرس إلى تحديد ضيق يحصر في عبارات سياسية صريحة، وهو حصر يستثني أنماط تأويل الوقائع، والسياسة المحددة للمناهج، ومقاربة النظريات، وغيرها من الأنماط الكثيرة. وفي جميع هذه المظاهر، إن مهمة إعادة التوجيه التي أقترِحُها على مناهج الآداب الليبرالية، والتي تناهض القوى الحاضرة في تشكيل ثقافات التعليم العالي هي مهمة ثورية. وبشكل مفاجئ، إن فيبر، المفكر التقليدي والمحافظ، هو الذي ألهمني بهذه الفكرة الثورية.

إن ما يسميه فيبر «قيما» هي علامات تدل على العمق والمقدرة الإنسانيين، تنشأ من ناحية عما يصطلح عليه «حيوات باطنية» خاصة بنا، وتستلزم علاوة على ذلك تصورات توجه طرق عيشنا مجتمعين. في هذه التوليفة تدل القيم على شيء فريد بخصوصنا كنوع، لاسيما قدرته على تشكيل عالم في ارتباط بما نعرفه وما نعتقده. إن إمكان سن هذه التصورات تهدده بشكل خاص قوى الحداثة التي تقوض قدرتنا على تشكيل حيواتنا تشكيلا جماعيا. إن أجهزة السيطرة التي يحددها فيبر في الرأسمالية والبيروقراطية تنضاف إليها في الحاضر التقنيات الرقمية والمالية. ويعد هذا التقويض صورة صارخة من

الخطيرة. ينقاد أغلب الطلاب الجادين والمتحمسين إلى العلوم الإنسانية، حيث يمكنهم التأكد من انشغالاتهم وإيجاد الأجوبة على أسئلتهم على الرغم من انفصالها عن البحث التجريبي والتحليلات التاريخية، والأنساق الاجتماعية، والسلطة.

صور سلب الحرية؛ وإن قبولنا به يعد مظهرا أساسيا من مظاهر العدمية. إن زرع القيم وموضعة الصراع عليها في قلب الحياة السياسية يقدمان بديلا عن الخضوع لحكم أنظمة السيطرة هذه التي لم نخترها، وللمتسلطين المتلاعبين والمستغلين للسلطة، أو للتكنوقراط. وفي هذا الصدد، إن تأكيد فيبر على مفهوم الآلهة المتحاربة بوصفه جوهرا دائما للحياة السياسية يتعدى كونه اعتراضا على من يتصورون بسذاجة وجود حياة موحدة ومنسجمة بعد الثورة. إنه يتصدى أيضا من منظور مناهض للعدمية للتحديد سيء السمعة الذي أقامه شميت للصراع السياسي انطلاقا من التمييز بين الصديق والعدو، واختزال لينين للسياسة في «من- من» (من سينتصر على من)، والموقف الواقعي الكلاسيكي الذي يفيد أن السياسة تحكمها قوانين موضوعية متجذرة في الطبيعة الإنسانية المشيَّئَةِ. إن إدراك فيبر لطبيعة القيم الخلاقة بصورة راسخة، بالإضافة إلى السياسة بوصفها مجالا للصراع حول القيم هو ما قاده إلى رفض المسعى الكانطي الذي يرمي إلى تأسيس القيم على كليات أخلاقية، والمسعى الماركسي الذي يدمجها في المادية الجدلية، والمسعى النيتشوي الذي يركز على استعادة الأفراد العظماء بعد فترة العدمية، وهو ما قاده كذلك إلى رفض ما سيعرف لاحقا باستسلام القيم النيوليبرالية للضوابط التلقائية للأسواق والنزعة التقليدية الأخلاقية.

لكن وعلى الرغم من رفض فيبر للأسس الجديدة للقيم-

سواء كانت عقلانية، أو طبيعية، أو لاهوتية، أو نيوليبرالية- فقد بحث عن طرق تجعل القيم قابلة للتفكير وتقيد سنها بالفعل المسؤول. وعلى الرغم من أوجه القصور التي تمس تسطيره لأصناف النظرية السياسية والاجتماعية الضرورية لفهم وضعنا الحالي والممارسات الاجتماعية والسياسية اللازمة لإحداث التغييرات الممكنة داخله، فقد فهم أن إعادة إحياء أهمية القيم في خضم التبخيس أو الهدم العدمي لها يتطلب تجديد الالتزام بإنسانيتنا على مستويين. تجسد القيم قدرتنا السياسية الفذة على تشكيل العالم بناء على أهداف مختارة عندما يبدو تقريبا أن تلك القدرة تقوضها قوى تتحكم في حياتنا ومستقبلنا وعادة ما تعرضهما للخطر. تتطلب إعادة الالتزام أيضا القبول بالمصدر الإنساني الخالص للقيم، وبتعلقنا الإنساني المركب بها -فكريا، وعاطفيا، ونفسيا، وثقافيا، وتاريخيا. وبخلاف العدمية التي ينسبها البعض إلى هذا القبول، فإنه ينطوي وحده على إمكان تجاوزها.

شكر وتقدير

أدين بالشكر للجنة المحاضرات تانر في جامعة يال ولا سيما Gary Tomlinson لاستدعائه لي لإلقاء هذه المحاضرات عام 2019. كما أتوجه بالشكر أيضا إلى Paul North و Kathryn Loftonاللذين أشركاني في حوارات عامة غنية وصعبة في جامعة يال بعد إلقائي للمحاضرات. وأود أن أشكر William Callison و Jill Frank و Robyn Marasco و Matthew Shaferو Alicia Steinmetzو Yves Winter على قراءتهم النقدية لجزء من هذا العمل عندما رجعت إليه بعد مرور ثلاثة أعوام. هناك قارئ مجهول الاسم من دار النشر قدم ملاحظات دقيقة أسهمت في تحسين هذا الكتاب. وأخيرا، أدين بالشكر العميق ل Judith Butler و Brian Judgeعلى عملهما النبيل والدقيق على النسخة النهائية للكتاب.

ويندي براون

الأزمنة العدميّة

تستكشف ويندي براون من خلال هذا العمل العميق مفهوم العدمية وارتباطه بالمجتمع المعاصر بالاستناد إلى أفكار المفكر السوسيولوجي ماكس فيبر. تسبر براون أغوار مفهوم العدمية بوصفه حالة لفقدان المعنى تجرد القيم والاعتقادات التقليدية من سلطتها ودلالتها. تفحص الكاتبة السياسية الكيفية التي أدت بها الرأسمالية والحداثة إلى نشوء الأزمنة العدمية حيث تحجب الفردانية والمنطق المتحكم في السوق الروابط الاجتماعية والإطارات الأخلاقية، وتبين أن هذه النقلة نحو العدمية لها مضاعفات عميقة على الفضاءات السَياسية، والاجتماعية، والثقافية، والمعرفية والأكاديمية وعلى الوضع المتأزم لمفهوم القيمة داخلها.

وبانخراطها في كتابات فيبر، ولاسيما محاضرتيه «العلم بوصفه حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة»، تسعى براون من خلال تساؤلاتها إلى الخروج من هذا الوضع العدمي المتأزم بفحص جذور العدمية وتمظهراتها، وتسليط الضوء على تأثيراتها في السياسة المعاصرة وفي تقويض الديمقراطية، وتداعياتها على واقع المعرفة في الفضاء الجامعي والأكاديمي. وباستنادها إلى فهم فيبر لأسس البيروقراطية، والكاريزماتية، وللأهمية التي أولاها للقيم وللإيتيقا، فإنها تقدم تقييما نقديا للنزوعات العدمية السائدة في أزمنتنا المعاصرة، وباعتمادها على تحليل محرِّض على التفكير، ومنظورات متعددة التخصصات، تشجع براون القارئ على التفكير في التحديات التي تطرحها العدمية، وتقدم تصورها لخوض غمار هذه التحديات لإعادة بناء الإطارات والتشكيلات السياسية والاجتماعية والأخلاقية واسترداد المعنى الذي جُرِّدت منه، وبناء معانٍ أخرى تواكب أزمنتنا.

WWW.PAGE-7.COM
ISBN: 978-9938-8387-92-4
9 786038 387924
Designed by Tawfiq Omrane

صفحة 7